



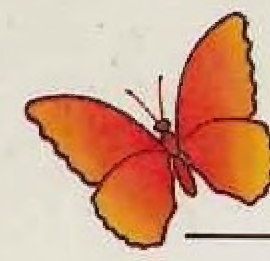
# شبح بانكر فيل

القصص العالمية

٧

شبح بانكر فيل

مكتبة لبنان ناشرون



اخترت مكتبة لبنان ناشرون أروع القصص العالمية ، ونقلتها إلى العربية مبسطة ، مراعية الأمانة في النقل والمحافظة على جزالة الأسلوب العربي وبلاغته ، مع تشكيل كامل وضبط دقيق . وقد أشرف على هذه السلسلة خبراء دائرتي النشر والمعاجم في مكتبة لبنان ناشرون حتى توفر للقارئ العربي إنتاجاً فكرياً متفوقاً مظهرًا ومضمونًا .



AL-KHERAIJI BOOKSHOP

17.00 SR



119001602

مكتبة لبنان ناشرون



01C196807



كتب الفراشة - القصص العالمية

# شبح باسكرفيل



تأليف: سير آرثر كونان دويل  
أعدّها بالعربية: شوقي رياض السنورسي



مكتبة لبنات ناشرون





## مقدمة

من مفاوز «دارتمور» الكثيفة الموحشة، التي يَمْرَحُ على ظهرها أناسٌ ذوو طُمُوحاتٍ غريبةٍ غامضةٍ، من بينهم أحدُ المجرمينَ الخطيرينَ الفارينَ من وجهِ العدالةِ، ومخلوقٌ على هيئةِ كلبٍ ضخمٍ متوحشٍ خارقٍ للطبيعة - من تلكَ المفاوزِ اتخذَ «شرلوك هولمز» مسرَّحاً لإنجازِ من أشدَّ الإنجازاتِ ترويعاً في سجلِّه العمليِّ الحافلِ كواحدٍ من رجالِ الشرطةِ السريينَ المشهورينَ: ويتمثلُ هذا الإنجازُ في تقصِّي الحقائقِ وراءَ الوفاةِ الشاذةِ الغريبةِ لأحدِ السادةِ الأثرياءِ، ووراءَ الموتِ المسلطِ على رقابِ ورثتهِ الأثرياءِ... من تلكَ الأرضِ الموحشةِ الفقراءِ برزتَ قصةٌ من أنجحِ القصصِ البوليسيةِ وأكثرها خلُوداً في الأدبِ الإنجليزيِّ.

كتبَ سير آرثر كونان دويل رايعةَ الخالدةِ: «شبح باسكرفيل» عام ١٩٠١، مُعيداً بذلكَ إلى ذاكرةِ القراءِ شخصيةَ «شرلوك هولمز» الذي كانَ هوَ الباعثَ لِدُيوعِها وشُهْرَتِها من خلالِ سلسلةٍ منَ القصصِ كتبها قبلَ عشرِ سنواتٍ منَ ذلكَ التاريخِ. ولمعرفتهِ الجيدةِ الكاملةِ بتلكَ الشخصيةِ التي «أبدعها»، وبِمُتطلباتِ الجماهيرِ من قرائه المُعجِبينَ، استطاعَ «كونان دويل» أن يؤلِّفَ قصةً يضمنُ بها إثارةَ القُشعرِيرةِ، والمتعةَ أيضاً في نفوسِ قرائه، وأن يستوليَ بذلكَ على أفتدِنتهم تماماً - وهذا كانَ غرضه الواضحَ والمُحدَّدَ: ألا وهوَ إبداعُ أدبٍ شعبيٍّ كالحسنِ ما يكونُ هذا الأدبُ. ولقد نُشرَ

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل.

زقاق البلاط - ص.ب: ٩٢٣٢-١١

بيروت - لبنان

وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

© الحقوق الكاملة محفوظة

لمكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل.

الطبعة الأولى ١٩٩٤

رقم الكتاب 01 C 196807

طبع في لبنان



هذا الإنتاج الرائع على شكل حلقات في مجلة: «الشاطئ The Strand» في الفترة من أغسطس (آب) ١٩٠١ حتى أبريل (نيسان) ١٩٠٢.

وليس من وظيفة الأدب الشعبي أن يُثَقَّفَ أو يُلَهَّم أو يُبَصَّرَ بالحالات الإنسانية المتباينة، وهكذا يجب ألا نتوقع قراءة عميقة عندما نطالع «شبح باسكرفيل». على أن هذا اللون من الأدب الذي تتعشقه الجماهير - إن صحَّ هذا التعبير - هو وسيلة يمكن الاعتماد عليها للتأمل فيما يستغرق فيه المجتمع المعاصر من شؤون، وفي اهتمامات الإنسان المعاصر وأهوائه وميوله. وهذا كله ينعكس في شخصية «شرلوك هولمز»، التي هي دائماً ينبوع لافتنان القراء؛ فهو نموذج للسيد المهذب، والرجل المثقف، المتروى، الشديد الذكاء، الذي يتمتع بعقلانية شديدة، ويميزه استقلال فكري، وشجاعة باسلة، وتمرد على الرجعية والسلفية. وبسبب كل هذه الفضائل فهو متغرس ومثير لمن حوله أحياناً، وكان «شرلوك هولمز» - مع ذلك - شخصية محبوبة لجمهرة القراء، لأنها تمنح متفناً لإحباطات الناس في العقد الأخير من القرن التاسع عشر.

ويستطيع «كونان دويل» أن يضاعف من شغفنا بـ «شرلوك هولمز» عن طريق كتابة القصة من خلال المنظور الذي ترى به عينا الدكتور واطسن، مساعد هولمز الأمين، أحداثها. ولأن واطسن شخصية جذابة، متحمسة، مخلص، ولكنها محدودة الذكاء، فإنه يتجشم من العناء في إظهار حذق هولمز ومهارته، وهو يحملنا على أن نتخذ القرار النهائي بأنفسنا فيما يختص بشخصية هولمز وأفعاله - وهذا يزيد من جو الغموض والافتنان، فنحن في شك أبداً من خاتمة قصة «شبح باسكرفيل»، ولا نستطيع التأكد من شيء حتى نحين لحظاتها الأخيرة.



## شبح باسكرفيل

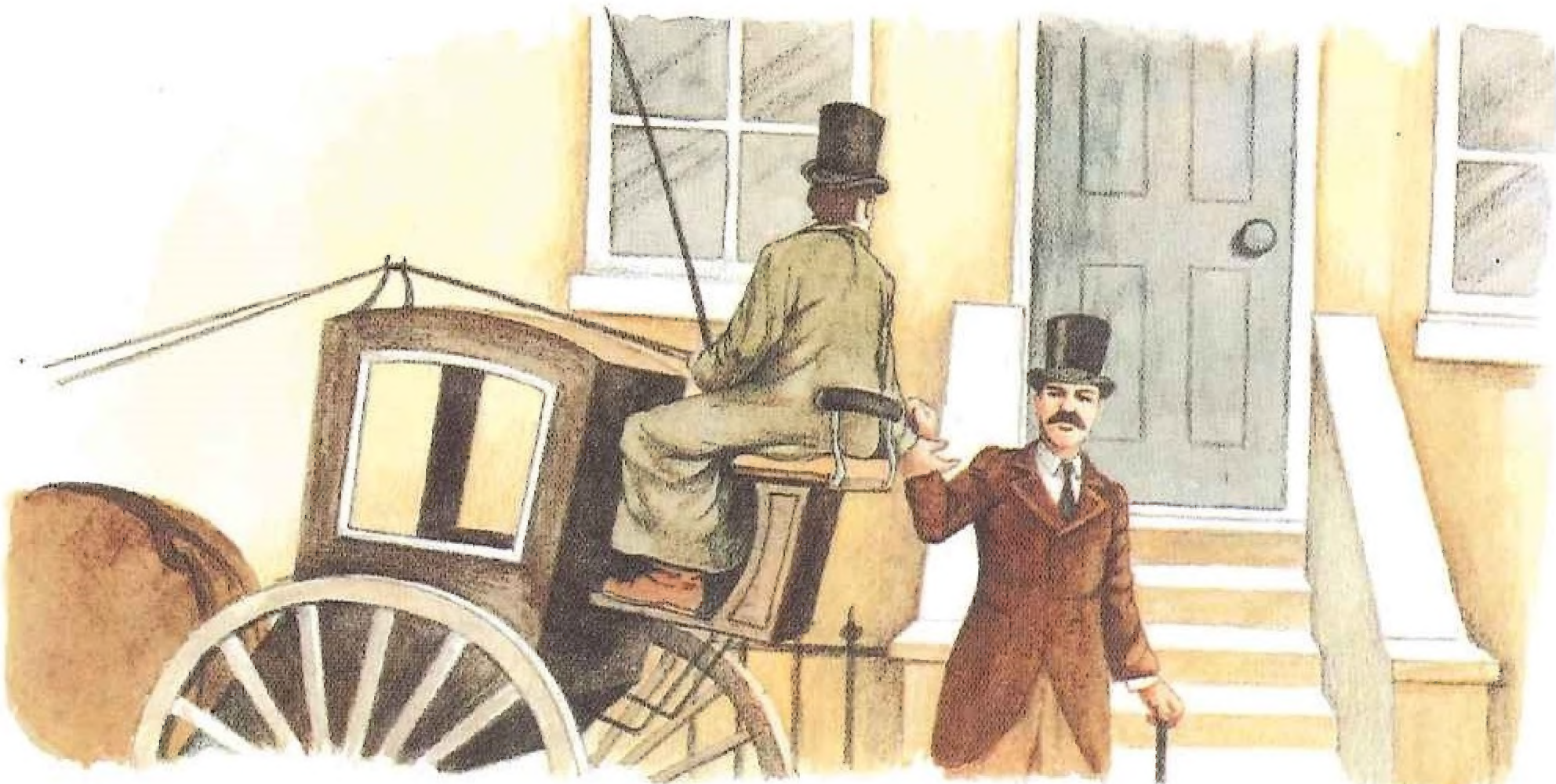
اسمي: الدكتور واطسن، وأنا زميل وصديق حميم للمُخبر السري الشهير: شرلوك هولمز. وقد عرّجت على منزله بشارع بيكر ذات صباح، فوجدته ما زال جالساً إلى مائدة الإفطار. وعلى كرسي مجاور كانت هناك عصا سير أغفلها وراءه أحد الزوار أثناء غيبتنا في الليلة السابقة. كانت عصا جميلة سميكة، ذات مقبض كمثري الشكل، ويوجد تحت المقبض مباشرة طوق فضي حفرت عليه هذه الكلمات: «إلى جيمس مورتيمر، MRCS، من أصدقائه في CCH عام ١٨٨٤». كانت عصا مهية جديرة بأن يحملها طبيب وقور من أطباء العائلات.

بادرني هولمز قائلاً: «حسنًا، يا واطسن، ماذا تستتج من هذا؟ بما أن زائرنا قد غادرنا الليلة الماضية دون أن يفصح عن قصده من الزيارة، فإنه يتعين علينا أن نعيد تقييم الرجل من خلال فحصنا لعصاه».

أجبت: «في هذه الحالة، أستطيع أن أقول إن الدكتور مورتيمر طبيب ناجح، متقدم نسبياً في السن، ومُحترم من زملائه».

قال هولمز: «حسن».

«كما أظن أنه يمارس مهنته في الريف».



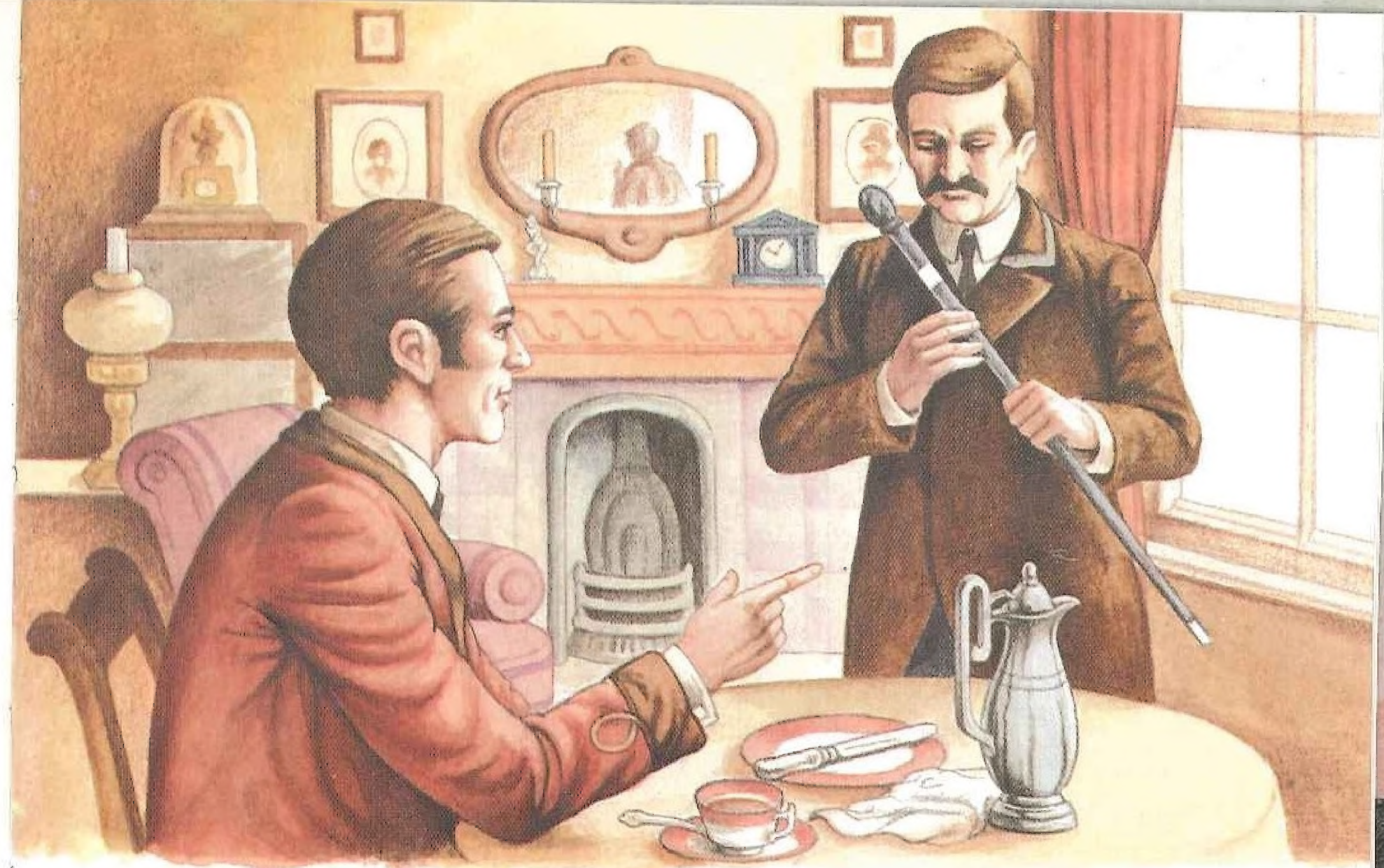


صاح هولمز قائلاً: «طريقة هذه العصا ومثيرة للاهتمام، مع أنها بسيطة تماماً.»  
سارعت بالتساؤل: «هل أغفلت أنا أي شيء مهم؟»

أجابني السيد هولمز: «يُؤسفني ألا تكون جميع استنتاجاتك صحيحة، يا واطسن، غير أن الرجل - بالتأكيد - يُمارس عمله الطبي في الريف ويسير لمسافات بعيدة. إن استنتاجاتك - إلى هذا الحد - صحيحة، غير أنني أرجح أن يكون الإهداء المحفور أسفل مقبض العصا صادراً من أحد المستشفيات لا من أحد النوادي. إن الحروف CCH تبدو لي في الواقع رمزاً لمستشفى مقاطعة تشيرنغ كروس (Charing Cross Hospital)، كما اعتقد أن هذه العصا قدمت له كهدية عندما ترك المستشفى. لا بد أنه كان جراحاً أو طبيباً مقيماً - أي لا يزيد كثيراً عن طالب طب - عندما ترك المستشفى عام ١٨٨٤، أي منذ خمس سنوات. وهكذا يا صديقي، يمكن أن تختفي من أمامنا الآن صورة الطبيب المتقدم في السن، لتحل محلها صورة الشاب اللطيف، الشارد، القليل الطموح، الذي لا يكاد يبلغ الثلاثين من العمر، والذي يمتلك كلباً أضخم من التريز (كلب صغير من كلاب الصيد) وأصغر من الدرواس (كلب ضخم من كلاب الحراسة).»

عندئذ كست وجهي ابتسامة تفصح عن الموافقة والاستحسان. ولكن للتأكد من نظرية هولمز تناولت دليل الأطباء من على الرف الذي خلف كرسيه، وبحثت عن أسم: جيمس مورثيمر... كان، عام ١٨٨٢، عضواً في الكلية الملكية للجراحين (MRCS: Member of the Royal College of Surgeons)، وقد عمل جراحاً مقيماً بمستشفى مقاطعة تشيرنغ كروس من عام ١٨٨٢ حتى عام ١٨٨٤. وهو يعمل الآن ببلدة «جرمين» بإقليم «ديفون». ونقلت هذه المعلومات في الحال إلى صديقي هولمز.

قال هولمز: «كنت على صواب في تخميناتي إذن، وبالإضافة إلى ذلك، فإن الطبيب الشاب لا بد أنه شخصية محبوبة، بدليل أنه تلقى هدية من زملائه في المستشفى، كما أنه قليل الطموح، لأنه أثر أن يترك مدينة لندن إلى الريف - وفي



تساءل قائلاً: «لماذا؟»

«لأن هذه العصا، مع أنها أنيقة، لكنها مخدوشة من جراء اضطدام عنيف بجسم صلب، حتى إن طبيباً المدينة لا يقبل على حملها؛ أضف إلى ذلك أن الحلقة المعدنية في أسفلها مستهلكة بالية.»

«هذا صحيح تماماً.»

ثم سارعت مُعقِّباً: «كذلك فإن الحروف CCH قد ترمز إلى أسم النادي الكائن في موقع الطبيب الريفي.»

صاح هولمز قائلاً: «أنت تتفوق على ذاتك، يا واطسن، ولديك القدرة دائماً على حفزي على التفكير. إنني مدين لك بالشيء الكثير.»

أسعدني سماع هذه الكلمات، وصرت فخوراً بنوال هذا الاستحسان من المخبر السري العظيم. وما لبث أن تناول مني العصا وعكف على فحصها بدقة.



نَفْسِ الْوَقْتِ لَا بُدَّ أَنَّهُ كَثِيرُ الشُّرُودِ ، لِأَنَّهُ نَسِيَ الْتِقَاطَ عَصَاهُ حِينَ غَادَرَ الْغُرْفَةَ .  
سَارَعَتْ أَسْأَلُهُ : « وَالْكَلْبُ ؟ »

أَجَابَنِي : « الْكَلْبُ مُعْتَادٌ عَلَى حَمْلِ الْعَصَا ، لِأَنَّ آثَارَ أَسْنَانِهِ مَحْفُورَةٌ عَلَيْهَا . إِنَّهُ كَلْبٌ صَغِيرٌ مَتَمَوِّجُ الشَّعْرِ مِنْ كِلَابِ « السَّبِيلِ » ، فَفَكُّهُ أَعْرَضُ مِنْ فَكِّ كَلْبِ « التَّرِيرِ » ، وَأَضِيقُ مِنْ فَكِّ كَلْبِ « الدَّرُوسِ » .

« كَيْفَ تَطُوفُ مِثْلُ هَذِهِ الْحَقَائِقِ بِذِهْنِكَ ، يَا عَزِيزِي هَوْلَمَز ؟ »

« لِأَنِّي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرَى مِنْ خِلَالِ النَّافِذَةِ ذَلِكَ الْكَلْبِ « السَّبِيلِ » وَاقِفًا عَلَى عَتَبَةِ مَنَزَلِي ، وَصَاحِبُهُ يَوْشِكُ أَنْ يَدُقَّ جَرَسَ الْبَابِ . »

بَعْدَ دَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ ، أُعْلِنَ عَنْ قُدُومِ الدَّكْتُورِ مَوْرْتِيمَر . كَانَ ذَا جِسْمٍ نَحِيلٍ بِالْغِ الطَّوْلِ ، وَعَيْنَيْنِ رَمَادِيَّتَيْنِ تَبْرَقَانِ خَلْفَ زُجَاجَتِي نَظَارَةٍ مُذْهَبَةٍ الْحَافَاتِ . وَاسْتَرَعَتْ نَظْرَهُ الْعَصَا عِنْدَ دُخُولِهِ الْغُرْفَةَ ، فَصَاحَ : « آه ! إِنِّي سَعِيدٌ بِعُثُورِي عَلَى عَصَايَ ، فَهِيَ هَدِيَّةٌ قَدَّمْتُ إِلَيْكَ فِي مُنَاسَبَةٍ عَزِيزَةٍ . »

نَظَرَ إِلَيْهِ هَوْلَمَزُ مُتَسَائِلًا : « أَهِيَ مِنْ مُسْتَشْفَى تَشِيرِنْغِ كَرُوس ؟ »

أَجَابَ الرَّجُلُ : « أَجَلٌ مِنْ أَصْدِقَائِي هُنَاكَ فِي مُنَاسَبَةٍ زَوَاجِي . »

« هَذَا شَيْءٌ رَائِعٌ . » وَعَقَّبَ هَوْلَمَزُ وَهُوَ يُشِيرُ إِلَيْهِ بِالْجُلُوسِ : « عَلَى فِكْرَةٍ ، هَذَا صَدِيقِي الْحَمِيمُ : الدَّكْتُورُ وَاطْسُن . » وَمَا إِنْ جَلَسَ زَائِرُنَا فِي مَقْعَدِهِ ، حَتَّى تَطَرَّقَ مُبَاشَرَةً إِلَى هَدَفِهِ مِنَ الزِّيَارَةِ .

بَدَأَ الطَّبِيبُ حَدِيثَهُ قَائِلًا : « حَسَنًا ، يَا سَيِّدُ هَوْلَمَز ، أَجِدُ نَفْسِي مُوَاجِهًا بِمُشْكِلَةٍ غَيْرِ عَادِيَّةٍ ، وَأُرِيدُ أَنْ أَهْتَدِيَ فِيهَا بِنَصِيحَتِكَ . » ثُمَّ تَنَاوَلَ مَخْطُوطًا مِنْ جَيْبِ سِتْرَتِهِ ، وَأَسْتَأْنَفَ كَلَامَهُ : « هَذَا مَخْطُوطٌ قَدِيمٌ ، وَلَكِنَّهُ ذُو صِلَةٍ خَاصَّةٍ بِمَوْضُوعِ قِصَّتِي . »

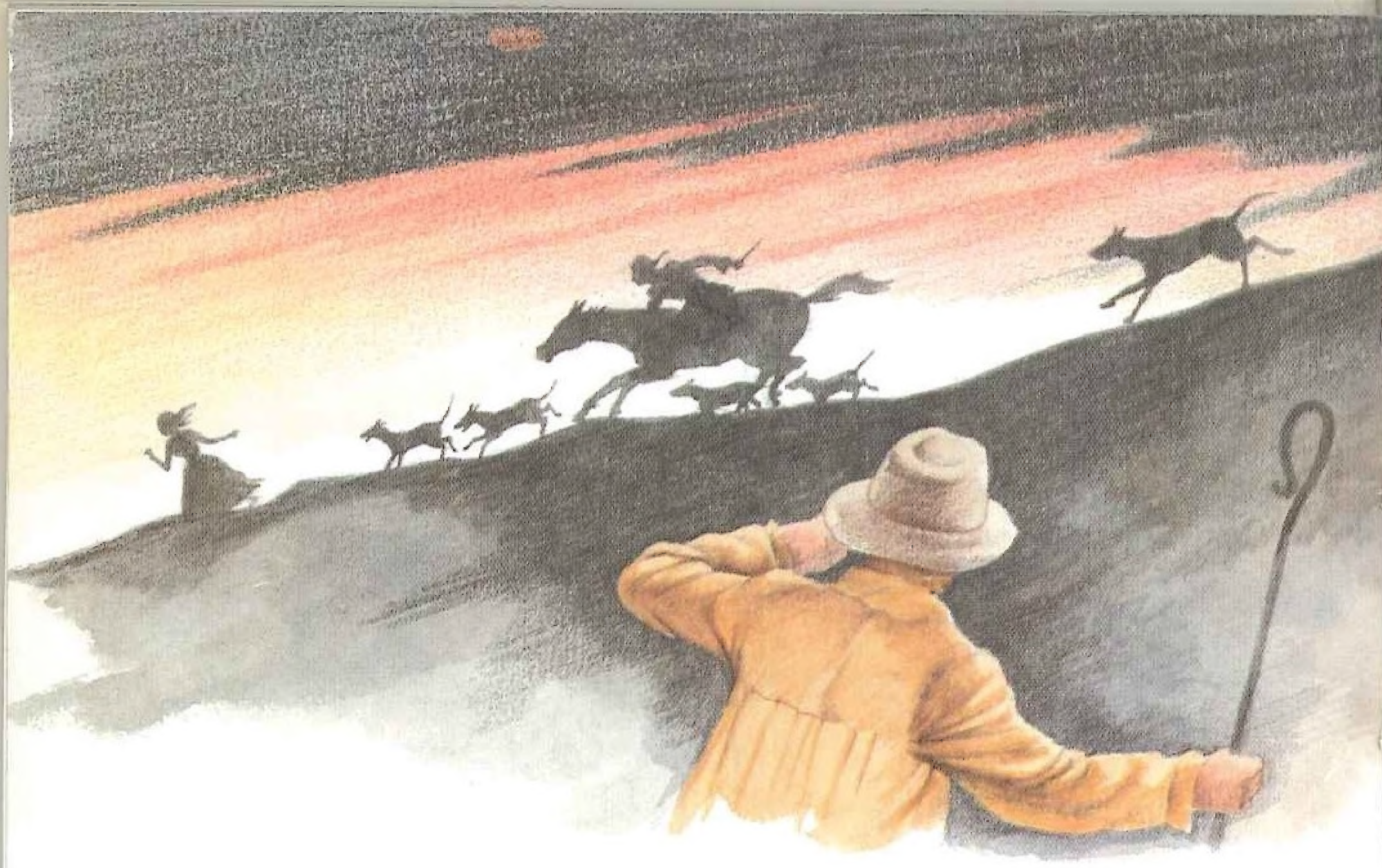
قَالَ هَوْلَمَزُ ، بَعْدَ أَنْ أَلْقَى نَظْرَةً قَصِيرَةً عَلَى الْمَخْطُوطِ : « مَا لَمْ يَكُنْ هَذَا مُزِيْقًا ، فَإِنَّهُ يَعُودُ إِلَى أَوَائِلِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ ... رُبَّمَا إِلَى حَوَالِي عَامِ ١٧٣٠ . »

سَأَلَ الدَّكْتُورُ مَوْرْتِيمَر ، وَقَدْ عَلَاهُ أَرْتَبَاكٌ وَاضِحٌ : « وَلَكِنْ كَيْفَ عَرَفْتَ ذَلِكَ ؟ »  
أَجَابَ هَوْلَمَزُ : « تَوَجَّدْتُ فِي حُرُوفِ الْكِتَابِ دَلَالَاتٌ مُعَيَّنَةٌ تُشِيرُ إِلَى اتِّمَائِهِ لِذَلِكَ التَّارِيخِ . »

أَمَّنَ الطَّبِيبُ عَلَى مُلَاحَظَتِهِ قَائِلًا : « إِنَّكَ لَعَلَى صَوَابٍ تَمَامًا ، فَإِنَّ التَّارِيخَ الْمَضْبُوطَ هُوَ عَامُ ١٧٤٢ . لَقَدْ عَهَدَ إِلَيَّ بِهَذِهِ الْوَثِيقَةِ سِير تشارلز بَاسْكَرْفِيل ، الَّذِي مَاتَ فَجَاءَةً مِنْذُ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ . كُنْتُ أَعْرِفُهُ جَيِّدًا ، فَقَدْ كُنْتُ طَبِيبَهُ الْخَاصَّ ، وَصَدِيقًا لَهُ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ . . . كَانَ رَجُلًا عَمَلِيًّا وَصَارِمًا ، وَلَمْ يَكُنْ بِحَالٍ خَيَالِيًّا أَوْ مُؤْمِنًا بِالْخُرَافَاتِ ، وَلَقَدْ أَخَذَ هَذِهِ



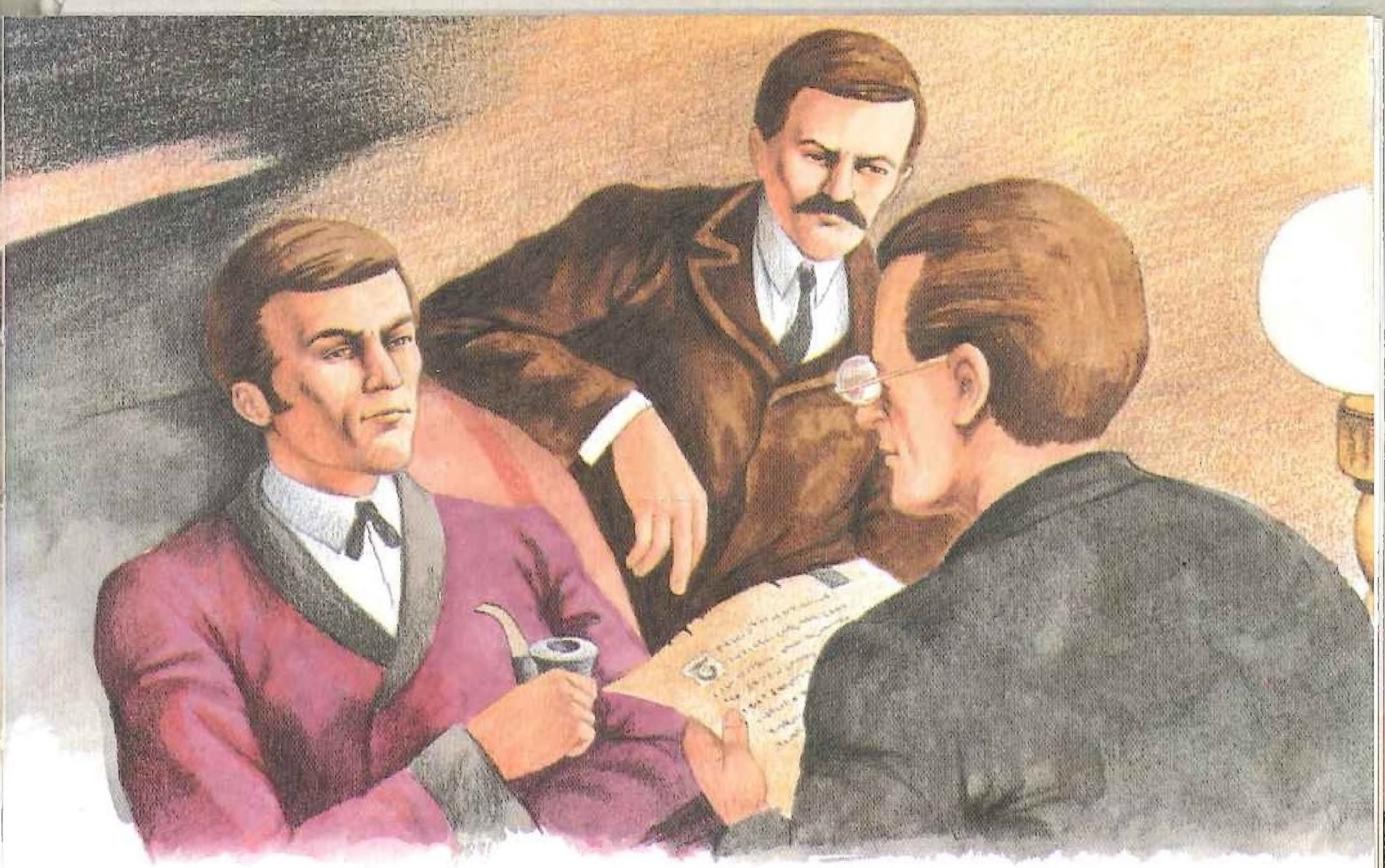




وَرَفَاقُهُ أُمْسِيَّتَهُمْ فِي اللَّهْوِ وَالشَّرَابِ. وَتَرَامَى غِنَاؤُهُمُ الْأَجَشُّ وَصَرَخَاتُهُمُ الْمَاجِنَةُ إِلَى سَمْعِ  
الْفَتَاةِ، فَأَصَابَهَا دُغْرٌ شَدِيدٌ، وَحَاوَلَتْ الْهُرُوبَ عَبْرَ النَّافِذَةِ، وَنَجَحَتْ فِي الْهُبُوطِ عَلَى  
أَغْصَانِ اللَّبْلَابِ الَّتِي تَغْطِي حَائِطَ الْقَصْرِ، إِلَى أَنْ لَامَسَتْ قَدَمَاهَا الْأَرْضَ. وَبَدَأَتِ السَّيْرَ  
فَوْقَ أَرْضِ الْمُسْتَنْقَعَاتِ السَّيْحَةِ اللَّيْنَةِ، وَكَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَقْطَعَ تِسْعَةَ أَمْيَالٍ لِلْوُصُولِ إِلَى  
مَنْزِلِهَا.

«وَبَعْدَ مُرُورِ وَقْتٍ مَا، أَكْشَفَ هُوَعُو أَنَّ سَجِيَّتَهُ قَدْ فَرَّتْ، فَاجْتَاوَتْهُ نَوْبَةٌ مِنْ  
الْغَضَبِ الشَّدِيدِ، وَهَبَطَ الدَّرَجَ بِسُرْعَةٍ فَائِقَةٍ وَهُوَ يُرْغِي وَيُزِيدُ، مُتَوَعِّدًا بِأَنَّهُ سَوْفَ يَهَبُ  
نَفْسَهُ رُوحًا وَجَسَدًا لِلشَّيْطَانِ فِي سَبِيلِ أَنْ يَلْحَقَ بِالْفَتَاةِ وَيُعِيدَهَا إِلَى قَصْرِهِ فِي الْحَالِ.  
وَنَادَى الرَّجُلُ السَّائِسَ فَاسْرَجَ فَرَسَهُ لِلتَّوَّ، وَأَطْلَقَ خَدْمَهُ كِلَابَ الْمُطَارَدَةِ مِنْ مَرَابِضِهَا،  
وَطَرَحُوا أَمَامَهَا مَنِدِيلًا سَقَطَ مِنْ يَدِ الْمَرْأَةِ، فَانْطَلَقَتْ وَرَاءَ رَائِحَةِ الْمَنِدِيلِ عَبْرَ  
الْمُسْتَنْقَعَاتِ.

«وَمَا إِنَّ أَسْتَبَانَ لِأَصْدِقَاءِ الرَّجُلِ خُطُورَهُ مَا يَجْرِي، حَتَّى أَمْشَوْا ظُهُورَ جِيَادِهِمْ



الْوَثِيقَةَ الَّتِي بَيْنَ يَدَيَّ مَأْخَذَ الْجِدِّ النَّامِّ. أَوَدُّ الْآنَ أَنْ أُخْبِرَكَ - لَوْ سَمَحْتَ - بِلُبِّ هَذَا  
الْمَخْطُوطِ.

«تَفَضَّلْ، فَأَنَا وَالْدَّكْتُورُ وَاطْسُنُ نَتَوَقُّ إِلَى سَمَاعِ قِصَّتِكَ.»  
تَنَحَّحَ الدَّكْتُورُ مَوْزِيمَرٌ، ثُمَّ بَدَأَ حَدِيثَهُ قَائِلًا:

«يَحْمِلُ الْمَخْطُوطُ فِي أَعْلَاهُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ: قَصْرُ بَاسْكَرْفِيلِ، عَامَ ١٧٤٢. وَيَحْكِي  
أُسْطُورَةً عَنْ «شَبَحِ آلِ بَاسْكَرْفِيلِ». وَلَقَدْ تُنَوَّقِلْتُ هَذِهِ الْقِصَّةَ أَبَا عَنْ جَدِّ حَتَّى آلتُ إِلَى  
الْكَاتِبِ، وَهِيَ تُسَجِّلُ حَادِثَةً فِي حَيَاةِ «هُوعُو بَاسْكَرْفِيلِ»، الَّذِي كَانَ مَشْهُورًا بِأَفْعَالِهِ  
الْوَحْشِيَّةِ الشَّرِيرَةِ فِي جَمِيعِ أَرْجَاءِ الْإِقْلِيمِ الْغَرْبِيِّ.

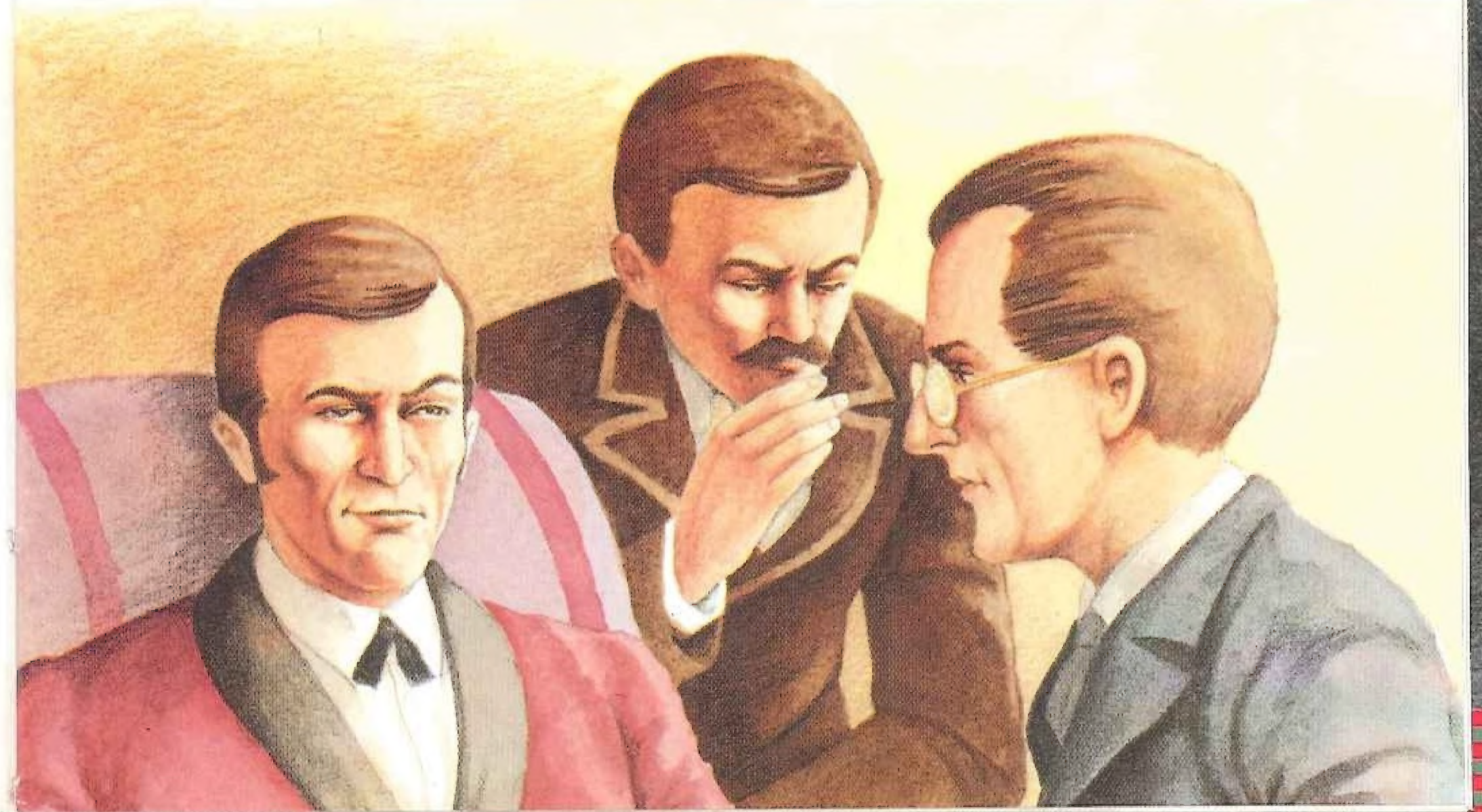
«لَقَدْ وَقَعَ الرَّجُلُ فِي حُبِّ جَارَتِهِ ابْنَةِ فَلَاحٍ مِنْ نَاحِيَّتِهِ، وَلَكِنَّ الْخَوْفَ تَمَلَّكَ  
الْفَتَاةَ، فَبَدَأَتْ تَتَجَاهَلُ مُلَاطَفَاتِهِ. وَعِنْدَمَا عَلِمَ هُوَعُو، ذَاتَ يَوْمٍ، بِغِيَابِ أَبِهَا وَإِخْوَتِهَا  
عَنِ الْمَنْزِلِ، تَسَلَّلَ إِلَى الْمَرْعَةِ مَعَ خَمْسَةِ أَوْ سِتَّةٍ مِنَ الرِّفَاقِ الطَّائِشِينَ، وَاخْتَطَفُوا الْفَتَاةَ  
عَنُودَةً. وَحَبِسَتْ الشَّابَّةُ الصَّغِيرَةُ فِي غُرْفَةٍ عُلوِيَّةٍ مِنْ غُرَفِ الْقَصْرِ، بَيْنَمَا أَمْضَى هُوَعُو



وَجَدُوا فِي السَّيْرِ خَلْفَهُ. وَبَعْدَ بُرْهَةٍ قَصِيرَةٍ اُلْتَقَوْا بِأَحَدِ رُعَاةِ الْأَغْنَامِ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَعْرِوهُ خَبَالٌ مِنَ الدُّعْرِ. وَقَالَ إِنَّهُ أَبْصَرَ الْفَتَاةَ تَعْدُو أَمَامَ الْكِلَابِ، كَمَا رَأَى هُوغو بِاسْكَرْفِيلَ عَلَى ظَهْرِ فَرَسِهِ السُّودَاءِ، مُتَبَوِّعًا بِكَلْبٍ ضَخْمٍ، صَامِتٍ، مُرَوِّعٍ الْهَيْئَةِ.

«مَرَّ وَقْتُ قَصِيرٍ، فَوَجَّى رِفاقُ هُوغو بَعْدَهُ بِالْفَرَسِ السُّودَاءِ تَعْدُو نَحْوَهُمْ، وَقَدْ خَلَّتْ مِنَ الرَّايِبِ وَاللَّجَامِ. وَلَمَّا هَزَّهُمْ هَذَا الْمَنْظَرُ، سَارُوا بِبُطْءٍ فَوْقَ جِيَادِهِمْ إِلَى أَنْ هَبَطُوا أَحَدَ الْوُذْيَانِ. وَمَا إِنْ تَوَغَّلُوا قَلِيلًا فِي ذَلِكَ الْوَادِي، حَتَّى رَأَوْا فِي ضَوْءِ الْقَمَرِ جُنَّةَ الْفَتَاةِ وَقَدْ قَضَتْ مِنَ الرُّعْبِ وَالْإِعْيَاءِ، كَمَا رَأَوْا عَلَى بُعْدِ أُمْتَارٍ قَلِيلَةٍ مِنْهَا جُنَّةَ هُوغو بِاسْكَرْفِيلَ. بَيَّنَّ أَنَّ الشَّيْءَ الَّذِي أَعَادَ أَوْلَيْكَ السُّكَارَى الْمُعْرِبِينَ إِلَى صَوَابِهِمْ، مُفْرِعًا إِيَّاهُمْ أَشَدَّ الْفَزَعِ، كَانَ مَرَأَى وَخَشٍ ضَخْمٍ أَسْوَدَ عَلَى هَيْئَةِ كَلْبٍ يَرِيضُ فَوْقَ جُنَّةِ هُوغو وَيَمْرُقُ رَقَبَتَهُ تَمْرِيْقًا. وَعِنْدَمَا اسْتَدَارَ الْكَلْبُ نَحْوَهُمْ، صَرَخُوا صَرَخَاتِ الرُّعْبِ، وَعَادُوا بِسُرْعَةٍ جُنُونِيَّةٍ عَبْرَ الْمُسْتَنْقَعَاتِ.

«كَانَ كَاتِبُ الْمَخْطُوطِ يُدْعَى «هُوغُو بِاسْكَرْفِيل» أَيْضًا. وَلَقَدْ كَتَبَ تِلْكَ الْوَثِيقَةَ لِيُحَذِّرَ أَبْنَاءَهُ رُودَجِرَ وَجُونَ مِنْ مَغَبَّةِ الْحَيَاةِ الْفَاسِقَةِ، نَاصِحًا إِيَّاهُمَا - بِوَجْهِ خَاصٍّ - أَلَّا يُعَامِرَا بِالسَّيْرِ، بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، عَبْرَ الْمُسْتَنْقَعَاتِ.»



وَبِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَضَعَ الدُّكْتُورُ مَورْتِيمَرُ الْمَخْطُوطَ، ثُمَّ اسْتَدَارَ إِلَى هُولْمَز قَائِلًا: «هَلْ تَجِدُ هَذِهِ الْقِصَّةَ شَائِقَةً يَا سَيِّدُ هُولْمَز؟»

أَجَابَ هُولْمَزُ بِاقْتِضَابٍ: «أَجَلْ، عَلَى أُعْتِبَارِ أَنَّهَا حِكَايَةٌ خَيَالِيَّةٌ.»

اسْتَأْنَفَ الطَّبِيبُ حَدِيثَهُ قَائِلًا: «حَسَنًا، يَا سَيِّدُ هُولْمَز. وَالْآنَ لِنَتَكَلَّمْ فِي شَيْءٍ أَحَدَثَ عَهْدًا مِنْ ذَلِكَ.»

وَأَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ جَرِيدَةً مَطْوِيَةً، وَكَانَتْ نَسْخَةً مِنْ صَحِيفَةٍ مُقَاتَعَةٍ دِيقُونَ، وَاسْمُهَا «دِيقُونَ كَوْنْتِي كَرُونِيكل»، الصَّادِرَةُ بِتَارِيخِ ١٤ يُونِيهِ (حَزِيرَانِ) ١٨٩٢، وَكَانَتْ تَحْمِلُ وَصْفًا لَوَفَاةِ سِير تشارلز بِاسْكَرْفِيلِ الْغَرِيبَةِ، الَّتِي وَقَعَتْ قَبْلَ بَضْعَةِ أَيَّامٍ.

وَقَالَ الدُّكْتُورُ مَورْتِيمَرُ: «اسْمَحْ لِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ الْأَجْزَاءَ الْمُهَمَّةَ مِنَ الْقِصَّةِ الَّتِي نَشَرْتَهَا الْجَرِيدَةُ:

«كَانَ سِير تشارلز بِاسْكَرْفِيلُ قَدْ جَمَعَ ثَرَوَةً طَائِلَةً مِنَ التَّجَارَةِ، وَعَادَ مِنْ جَنُوبِ إِفْرِيقِيَا مُنْذُ عَامَيْنِ لِيَسْتَقِرَّ فِي بَيْتِ أَجْدَادِهِ، أَيْ فِي قَبْرِ بِاسْكَرْفِيلَ. كَانَ أَرْمَلًا بِلَا أَطْفَالٍ، وَكَانَ يَعِيشُ مَعَهُ فِي دَاخِلِ الْقَصْرِ السَّيِّدُ بَارِيمُورُ كَبِيرُ الْخَدَمِ وَزَوْجَتُهُ مُدَبِّرَةُ الْمَنْزِلِ.

«وَبَعْدَ أَنْ أَنْفَقَ سِير تشارلز مَبَالِغَ كَبِيرَةٍ عَلَى تَجْدِيدِ قَصْرِهِ وَإِعَادَتِهِ إِلَى رُونَقِهِ الْقَدِيمِ، حَوَّلَ أَهْتِمَامَهُ إِلَى الْمَنَاطِقِ وَالْمُجْتَمَعَاتِ الْمُجَاوِرَةِ، فَقَدَّمَ الْهَيَاتِ السَّخِيَّةَ لِلْمُؤَسَّسَاتِ الْخَيْرِيَّةِ الْمَحَلِّيَّةِ فِي مُقَاتَعَتِهِ. غَيْرَ أَنَّ صِحَّتَهُ أَصْبَحَتْ، مُنْذُ فِتْرَةٍ، مَدْعَاةٌ لِأَنْشِغَالِ أَصْدِقَائِهِ وَقَلَقِ طَبِيبِهِ الدُّكْتُورِ مَورْتِيمَرِ، الَّذِي عَرَفَ أَنَّهُ مَرِيضٌ بِالْقَلْبِ.

«وَكَانَ سِير تشارلز مُعْتَادًا عَلَى أَنْ يَتَرَهَّ فِي طَرِيقِ «يُو» الشَّهْرِ بِحَدِيقَةِ الْقَصْرِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُدَ لِلنَّوْمِ. وَفِي مَسَاءِ الْيَوْمِ الرَّابِعِ مِنْ يُونِيهِ (حَزِيرَانِ) أَعْلَنَ عَنْ اعْتِزَالِهِ السَّفَرِ إِلَى لَنْدُنَ فِي صَبِيحَةِ الْيَوْمِ التَّالِي. وَفِي نَفْسِ الْمَسَاءِ، قَامَ بِتَرْهَتِهِ اللَّيْلِيَّةِ الْمُعْتَادَةِ، بَيَّنَّ أَنَّ السَّاعَةَ بَلَغَتْ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ دُونَ أَنْ يَعُودَ، مِمَّا دَفَعَ بِخَادِمِهِ «بَارِيمُورَ» أَنْ يَتَنَاوَلَ مِصْبَاحًا



«وَيَعْتَقِدُ أَنَّ سِير هِنري بِاسْكَرْفِيل ، ابْنُ الْأَخِ الْأَصْغَرَ لِسِير تشارلز ، وَأَقْرَبَ الْأَقْرَبِ إِلَيْهِ ، مُقِيمٌ فِي أَمْرِيكَ .»

وَطَوَى الدُّكْتُور مورتيمر الجريدة ، وَتَطَّلَعَ إِلَيْنَا فِي تَسْأُولٍ وَاسْتِغْرَابٍ . وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَضَافَ قَائِلًا : «هَذِهِ ، يَا سَيِّدُ هَوْلْمز ، هِيَ الْحَقَائِقُ الْعَامَّةُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِوَفَاةِ سِير تشارلز بِاسْكَرْفِيل .»

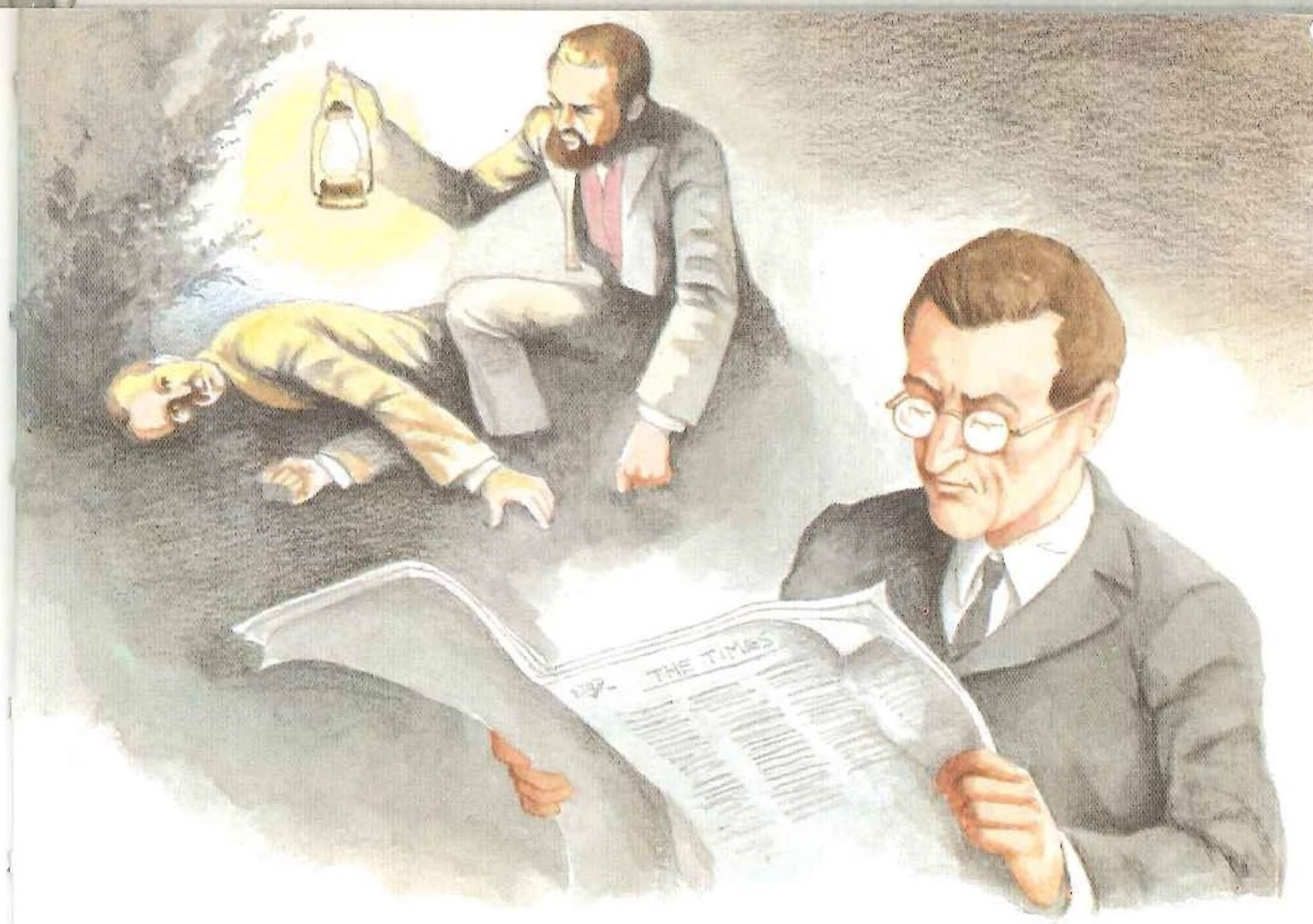
رَدَّ هَوْلْمز بِقَوْلِهِ : «آه ! إِنَّهَا حَالَةٌ بِالْغَةِ الْغَرَابَةِ . وَلَكِنَّكَ سَرَدْتَ لِي حَقَائِقَهَا الْعَامَّةَ فَحَسْبُ ، وَالْآنَ دَعْنِي أَطَّلِعُ عَلَى التَّفَاصِيلِ الْخَاصَّةِ .»

عِنْدَئِذٍ أَخَذَ الدُّكْتُور مورتيمر يَسْرُدُ بَعْضَ الْخَلْفِيَّاتِ الْمُتَّصِلَةِ بِالْمَوْضُوعِ : فَذَكَرَ أَنَّ سُكَّانَ أَرْضِ الْمُسْتَنْقَعَاتِ - بِسَبَبِ تَنَاقُضِهِمْ وَضَالَةِ عَدَدِهِمْ فِي الْمِنْطَقَةِ - سَرَّعَانَ مَا يَتَجَمَّعُونَ وَيَاتَلِفُونَ فِي شَتَّى الْمُنَاسَبَاتِ ، وَأَنَّ الرَّجُلَيْنِ الْمُتَقَفَيْنِ الْوَحِيدَيْنِ فِي تِلْكَ النَّاحِيَةِ هُمَا : السَيِّدُ سَتِيلْتون ، عَالِمُ التَّارِيخِ الطَّبِيعِيِّ ، الَّذِي يَقْطُنُ بَيْتَ «مِيرِيَت» وَهُوَ حُجَّةٌ فِي حَشَرَاتِ الْعُثَّةِ وَالْفَرَاشَاتِ ، وَالسَيِّدُ فَرَانْكلاند ، الَّذِي يَسْكُنُ فِي «قَصْرِ لافتر» ، وَهُوَ كَهْلٌ غَرِيبُ الْأَطْوَارِ ، وَمُدَافِعٌ مُتَحَمِّسٌ عَنِ الْحُقُوقِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ لِعُمَالِ الْمَزَارِعِ ، وَهَآؤِ لِعِلْمِ الْفَلَكَ .

وَأَضَافَ الدُّكْتُور مورتيمر أَنَّهُ كَثِيرًا مَا زَارَ سِير تشارلز بِصِفَتِهِ صَدِيقَهُ وَطَبِيبَهُ الْخَاصَّ ، وَأَنَّهُ كَانَ مُهْتَمًّا بِحَالَتِهِ الصَّحِّيَّةِ ، لِأَنَّهُ بَدَأَ وَكَأَنَّهُ يُعَانِي مِنْ ضَغْطٍ عَصَبِيٍّ شَدِيدٍ - وَهُوَ أَمْرٌ يَدْعُو إِلَى الْقَلْقِ وَالْإِنْشِغَالِ بِالنَّسْبَةِ لِمَرِيضٍ يَشْكُو مِنْ مَرَضِ الْقَلْبِ . كَمَا قَالَ إِنَّ أُسْطُورَةَ الْكَلْبِ الْقَدِيمَةِ هِيَ الَّتِي كَانَتْ تُثْقِلُ عَلَى أَعْصَابِ سِير تشارلز ، فَلَقَدْ بَدَأَ وَاضِحًا أَنَّهُ يُؤْمِنُ بِأَنَّ قَدْرًا مُرْعَبًا يُخَيِّمُ عَلَى رُؤُوسِ أَفْرَادِ عَائِلَتِهِ ، وَكَانَ يَأْخُذُ تِلْكَ الْأُسْطُورَةَ مَأْخُذَ الْجِدِّ حَتَّى إِنَّهُ كَانَ لَا يَجْرُؤُ عَلَى تَخْطِي حَقِيقَةِ قَصْرِهِ لَيْلًا .

قَاطَعُهُ هَوْلْمز قَائِلًا : «لَكِنْ قُلْ لِي : هَلْ سَمِعْتَ أَوْ رَأَيْتَ هَذَا الْكَلْبَ الْأُسْطُورِيَّ وَلَوْ مَرَّةً وَاحِدَةً ، أَنْتَ أَوْ أَيُّ شَخْصٍ آخَرَ مُوثُوقٍ بِهِ ؟»

نَظَرَ الدُّكْتُور مورتيمر بِثَبَاتٍ إِلَى هَوْلْمز ، ثُمَّ قَالَ : «أَجَلْ ، يَا سَيِّدُ هَوْلْمز ، لَقَدْ



وَيَخْرُجَ بَحْثًا عَنْ سَيِّدِهِ . وَفِي مُتَّصِفِ طَرِيقِ «يُو» تَوَجَّدَ بَوَابَةٌ تُؤَدِّي إِلَى أَرْضِ الْمُسْتَنْقَعَاتِ .

«وَمِنَ الْمُرَجَّحِ أَنَّ سِير تشارلز قَدْ تَوَقَّفَ بُرْهَةً فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ لِيَدْخُنَ سِجَارًا ، مَعَ أَنَّ جُثَّتَهُ وَجِدَتْ فِي الطَّرَفِ الْأَقْصَى مِنَ الطَّرِيقِ . وَلَمْ تَبْدُ عَلَى الْجَسَدِ آيَةُ أَثَارٍ لِلْعُنْفِ أَوْ الْمُقَاوَمَةِ ، وَلَكِنْ وَجْهُهُ بَدَأَ مُتَبَدِّلَ الْمَلَامِحِ مِنَ الرُّعْبِ ... كَانَ وَاضِحًا أَنَّ الْوَفَاةَ حَدَثَتْ إِثْرَ هُبُوطٍ فِي الْقَلْبِ .

«عَلَى أَنَّ حَقِيقَتَيْنِ غَرِيبَتَيْنِ بَرَزَتَا إِثْرَ الْحَادِثِ : فَقَدْ قَرَّرَ «بَاريمور» فِي شَهَادَتِهِ أَنَّ أَثَارَ قَدَمَيْ سَيِّدِهِ قَدْ تَغَيَّرَتْ بَعْدَ أَنْ تَخْطَى الْبَوَابَةَ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى الْمُسْتَنْقَعَاتِ : بَدَأَ عِنْدَئِذٍ كَمَا لَوْ كَانَ يَسِيرُ عَلَى أَصَابِعِ قَدَمَيْهِ فَقَطْ . وَبِالْإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ ، فَقَدْ قَرَّرَ أَيْضًا أَحَدُ الْعَجَرِ وَأَسْمُهُ «مِرْفِي» أَنَّهُ سَمِعَ بَعْضَ الصَّرَخَاتِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُؤَكِّدَ مِنْ أَيِّ اتِّجَاهٍ أَتَتْ .



سَمِعْتُ، أَنَا وَسِير تشارلز، نُبَاحَ كَلْبٍ فِي مُنَاسَبَاتٍ عِدَّةٍ، كَمَا أَنَّنَا لَمَحْنَاهُ بِالْفِعْلِ، ذَاتَ لَيْلَةٍ، عِنْدَ نِهَآيَةِ الطَّرِيقِ.

أَرَدَفَ الدَّكْتُورُ مَوْرْتِيمَرُ أَنَّهُ نَصَحَ سِير تشارلز عَقِبَ تِلْكَ التَّجَارِبِ الْمُرْعِجَةِ، بِأَنْ يُمَضِيَ شَهْرًا أَوْ شَهْرَيْنِ بَعِيدًا عَنِ الْقَصْرِ، خَشْيَةً أَنْ يُصَابَ بِإِنْهِيَارٍ عَصَبِيٍّ شَامِلٍ. وَأَجَابَ الطَّبِيبُ عَنْ أَسْئَلَةِ هَوْلْمَزِ الْآخَرَى، حَيْثُ وَصَفَ كَيْفِيَّةَ اكْتِشَافِ الْجُثَّةِ، مُؤَكِّدًا مَرَّةً أُخْرَى أَنَّهُ عَلَى حِينِ كَانَتْ آثَارُ قَدَمَيْ سِير تشارلز وَأَصَابِعُهُمَا تَظْهَرُ بِوُضُوحٍ عَلَى الْأَرْضِ قَبْلَ غُبُورِهِ الْبَوَابَةِ، فَإِنَّ آثَارَ أَصَابِعِ الْقَدَمَيْنِ فَقَطْ هِيَ الَّتِي ظَهَرَتْ بَعْدَ غُبُورِهِ إِيَّاهَا. وَمَضَى قَائِلًا إِنَّهُ لَمْ يَجِدْ بَصَمَاتٍ أُخْرَى قُرْبَ الْجُثَّةِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ وَقَعَ مُصَادَفَةٌ عَلَى آثَارٍ أُخْرَى عَلَى مَسَافَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْهَا.

سَأَلَ هَوْلْمَزُ: «هَلْ هِيَ آثَارُ أَقْدَامِ؟»

أَجَابَ الطَّبِيبُ: «أَجَلٌ».

«أَهِيَ آثَارُ أَقْدَامِ رَجُلٍ أَمْ أَمْرَأَةٍ؟»

«بَلْ آثَارُ أَقْدَامِ كَلْبٍ ضَخْمٍ، يَا سَيِّدُ هَوْلْمَزُ!»

وَأَخْبَنِي هَوْلْمَزُ رَأْسَهُ إِلَى الْأَمَامِ مِنَ الْإِنْفِعَالِ، وَقَدْ بَرَقَتْ عَيْنَاهُ، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ رَأَيْتَهَا بِنَفْسِكَ؟»

أَجَابَ الطَّبِيبُ: «بِوُضُوحٍ تَامٍّ، كَمَا أَرَاكَ أَمَامِي الْآنَ، يَا سَيِّدُ هَوْلْمَزُ».

«وَهَلْ شَاهَدَهَا شَخْصٌ آخَرُ سِوَاكَ؟»

«لَا يُحِيلُ إِلَيَّ ذَلِكَ... كَانَتْ آثَارُ الْأَقْدَامِ عَلَى بُعْدِ حَوَالِي عِشْرِينَ مِثْرًا مِنَ الْجُثَّةِ».

قَالَ هَوْلْمَزُ: «تَوْجَدُ كِلَابٌ كَثِيرَةٌ لِحِرَاسَةِ الْأَغْنَامِ فِي هَذِهِ الْمَنْطِقَةِ، عَلَى مَا أَعْتَقِدُ».

وَجَاءَ الرَّدُّ: «هَذَا لَمْ يَكُنْ كَلْبًا لِحِرَاسَةِ الْأَغْنَامِ... كَانَ كَلْبًا ضَخْمًا هَائِلًا».

«وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقْتَرِبْ مِنَ الْجُثَّةِ أَوْ يَنْهَشْهَا؟»

أَجَابَ الطَّبِيبُ: «كَلَّا، لَمْ تَكُنْ عَلَى الْجَسَدِ آيَةٌ آثَارٍ لِجُرُوحٍ».



«وَمَاذَا عَنْ آثَارِ الْأَقْدَامِ قُرْبَ الْبَوَابَةِ؟»

«كَانَتْ مُخْتَلِطَةً تَمَامًا. كَانَ مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ سِير تشارلز قَدْ تَوَقَّفَ هُنَاكَ لِمُدَّةِ خَمْسِ أَوْ عَشْرِ دَقَائِقَ. لَقَدْ لَاحَظْتُ رَمَادَ سِيَّجَارِهِ».

صَاحَ هَوْلْمَزُ قَائِلًا وَعَلَى شَفَتَيْهِ أَيْتِسَامَةٌ عَرِيضَةٌ: «آه، يَا صَدِيقِي وَاطْسُنْ، هَذَا زَمِيلٌ يَتَّفِقُ مَعَنَا تَمَامًا، فَهُوَ يُلَاحِظُ الْأَشْيَاءَ، ثُمَّ يَسْتَنْبِطُ مِنْهَا أَسْتِنَاجَاتٍ صَحِيحَةً. وَلَكِنْ قُلْ لِي، يَا دَكْتُورُ مَوْرْتِيمَرُ: لِمَاذَا لَمْ تَسْتَدْعِنِي إِلَى دِيْفُونِشَايِرِ فِي الْحَالِ؟»

أَجَابَ الطَّبِيبُ: «لَمْ أَكُنْ مُوقِنًا مِنْ أَنَّكَ تَسْتَطِيعُ مُسَاعَدَتَنَا كَثِيرًا فِي مَجَالٍ يَبْدُو أَنَّهُ خَارِجُ نِطَاقِ قَوَانِينِ الطَّبِيعَةِ».

صَاحَ هَوْلْمَزُ بِحِدَّةٍ: «وَهَلْ أَفْهَمُ مِنْ ذَلِكَ، أَنَّكَ - وَأَنْتَ رَجُلٌ عِلْمٍ مُدْرَبٌ - تُؤْمِنُ حَقِيقَةً بِمَا يُحِيطُ بِهِذِهِ الْأَسْطُورَةُ مِنْ هُرَاءٍ شَبِيهِ بِالْخُرَافَاتِ؟»



«حَسَنًا، يَا سَيِّدُ هَوْلْمَز، لَا أَكَادُ أَعْرِفُ بِمَاذَا يَجِبُ أَنْ أُوْمِنَ، بَيِّدَ أَنْ عَدَدًا مِنْ سُكَّانِ الْأَرْضِ الرَّخْوَةِ يُصِرُّونَ عَلَى أَنَّهُمْ رَأَوْا كَائِنًا وَحْشِيًّا يُشْبِهُ كَلْبَ الْأُسْطُورَةِ... شَيْئًا شَبِيهًا بِشَبَحِ ضَخْمٍ مُرَوِّعٍ.»

قَالَ هَوْلْمَز بِإِتِسَامَةٍ هَادِئَةٍ: «يَجِبُ أَنْ تَعْتَرِفَ بِأَنَّ أَثَارَ أَقْدَامِ الْكَلْبِ كَانَتْ آثَارًا مَادِّيَّةً وَاقِعِيَّةً، وَأَنَّ الْكَلْبَ الْأَصْلِيَّ فِي الْأُسْطُورَةِ كَانَ كَلْبًا وَاقِعِيًّا فَعَلًا حَتَّى إِنَّهُ مَزَّقَ رَقَبَةَ الرَّجُلِ. وَلَكِنْ إِذَا كُنْتَ فِي شَكٍّ مِنْ مَقْدِرَتِي عَلَى مُسَاعَدَتِكَ، فَلِمَاذَا تَطْلُبُ مِنِّي أَصْلًا هَذِهِ الْمُسَاعَدَةَ؟»

«السَّبَبُ، يَا سَيِّدُ هَوْلْمَز، هُوَ أَنَّ الْوَرِيثَ الشَّرْعِيَّ لِضَيْعَةِ بَاسْكَرْفِيل، وَهُوَ سِير هَنْرِي بَاسْكَرْفِيل، سَوْفَ يَصِلُ مِنْ كَنْدَا بَعْدَ سَاعَتَيْنِ. وَفِي ضَوْءِ مَا حَدَثَ، أُحِبُّ أَنْ أَهْتَدِيَ بِنَصِيحَتِكَ عَمَّا إِذَا كَانَ مِنَ الْأَفْضَلِ أَنْ أَصْحَبَهُ مُبَاشَرَةً إِلَى قَصْرِ بَاسْكَرْفِيل، أَوْ أَبْقَى مَعَهُ فِي لَنْدُنَ فِتْرَةً مِنَ الْوَقْتِ.»

سَأَلَ هَوْلْمَز: «هَلْ يَوْجَدُ مُطَالِبٌ آخَرٌ بِالضَيْعَةِ وَاللَّقَبِ؟»

أَجَابَ الطَّبِيبُ: «كَلَّا، فَقَدْ كَانُوا ثَلَاثَةً إِخْوَةً: أَكْبَرُهُمْ تشارلز، الَّذِي مَاتَ كَمَا نَعْرِفُ، وَثَانِيَهُمْ هُوَ وَالِدُ سِير هَنْرِي، وَقَدْ قَضَى نَحْبَهُ شَابًّا، أَمَّا أَصْغَرُهُمْ - وَيُدْعَى رُودْجِر - فَكَانَ الشَّخْصَ الْفَاسِدَ فِي هَذِهِ الْأُسْرَةِ الْمُحْتَرَمَةِ. كَانَ عَنيفًا وَهَمَجِيًّا مِثْلَ جَدِّهِ «هَوغو»، وَلَكِنِّي يُقِلَّتْ مِنَ الْمَشْكِلاتِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِهِ، فَقَدْ هَرَبَ إِلَى أَوَاسِطِ أَمْرِيكَ، حَيْثُ مَاتَ مِنَ الْحُمَّى الصُّفْرَاءِ عَامَ ١٨٧٦. وَهَكَذَا يُصْبِحُ سِير هَنْرِي هُوَ الْأَخِيرَ مِنْ سُلَالَةِ «بَاسْكَرْفِيل» الَّذِي يَسْتَحِقُّ الضَّيْعَةَ. وَالْآنَ، يَا سَيِّدُ هَوْلْمَز، بِمَاذَا تَنْصَحُنِي أَنْ أَفْعَلَ؟»

«أَفْسَحْ لِي وَقْتًا حَتَّى أَتَدَبَّرَ الْأَمْرَ. وَالْآنَ خُذْ سِير هَنْرِي إِلَى فُنْدُقٍ، يَا دَكْتُورَ مَورْتِيمَر، ثُمَّ عُدْ بِهِ إِلَى هُنَا فِي الْعَاشِرَةِ مِنْ صَبَاحِ الْغَدِ.»

وَبَعْدَ ذَهَابِ الدَّكْتُورِ مَورْتِيمَر، طَلَبَ مِنِّي هَوْلْمَز أَنْ أَوَافِيَهُ بِبَعْضِ التَّبَغِ الْقَوِيِّ، ثُمَّ دَعَانِي أَنْ أَزُورَهُ فِي الْمَسَاءِ. وَعِنْدَمَا عُدْتُ إِلَيْهِ فِي السَّاعَةِ الثَّامِنَةِ حَسَبَ الْمَوْعِدِ، كَانَ

يَدْخُنُ غُلْيُونَهُ الْأَسْوَدَ وَكَانَ جَوْ الْغُرْفَةِ مَلِئًا بِسُحْبِ الدُّخَانِ. وَاضْطُرْتُ لِفَتْحِ النَّافِذَةِ حَتَّى يَتَجَدَّدَ الْهَوَاءُ.

قَالَ هَوْلْمَز: «حَسَنٌ، لَقَدْ قَضَيْتُ بَعْضَ الْوَقْتِ فِي دِيْفُونَشَايرَ.»

«بِالرُّوحِ، طَبْعًا؟»

«بِالضَّبْطِ، وَبِمُسَاعَدَةِ قَدَحَيْنِ مِنَ الْقَهْوَةِ، وَكَمِّيَّةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ التَّبَغِ، وَخَرِيطَةٍ وَاضِحَةٍ جَيِّدَةٍ.»

وَبَسَطَ الرَّجُلُ أَمَامِي خَرِيطَةً كَبِيرَةً لِمِنْطَقَةِ «جَرْمَيْنِ»، وَعَلَى تِلْكَ الْخَرِيطَةِ أَشَارَ إِلَى مَوَاقِعِ قَصْرِ بَاسْكَرْفِيل، وَقَصْرِ لَافْتِرَ الَّذِي يَسْكُنُهُ السَّيِّدُ فَرَانْكَلَانْدُ، وَبَيْتِ «مِيرِيَّت» الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ السَّيِّدُ سْتِيلْتُونُ، عَالِمُ التَّارِيخِ الطَّبِيعِيِّ. كَمَا أَشَارَ إِلَى مَوْقِعِي مَتْرَلَيْنِ رِيفَيْنِ آخَرَيْنِ: «هَاي تَوْر» وَ«فُولْمَاير». وَعَلَى الْخَرِيطَةِ كَانَ هُنَاكَ سِجْنُ «بَرْنِسْتُون» الَّذِي يَبْعُدُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ مِيلًا عَنْ هَذِهِ الْمَنَازِلِ.»





سألني صديقي هولمز: «هل فكرت في هذه القضية، يا واطسن؟»

«أجل، وأجدها مُحيرة للغاية.»

«وما رأيك في التغير الذي حدث في آثار الأقدام؟»

أجبت: «يقول الدكتور مورتيمر إن سير تشارلز كان يمشي على أصابع قدميه بعدما تخطى البوابة.»

«آه، يا واطسن! لم يكن سير تشارلز يمشي، إنه كان يحدو عذوًا... يحدو في رغب كي ينجو بحياته... حتى توقف قلبه وسقط ميتًا.»

سألت في عجب: «يحدو؟ يحدو من ماذا؟»

«من شيء ما سبب له دُعرًا كبيرًا حتى إنه فقد صوابه وجرى بعيدًا عن البيت بدلًا من أن يجري نحوه. ولكن يبدو أنه كان ينتظر شخصًا ما ليقابله عند البوابة. وهنا يبرز سؤال: لماذا عند البوابة وليس في منزله؟»

قلت: «انتظر أنه كان ينتظر شخصًا ما؟»

أجاب هولمز: «أجل.. كان سير تشارلز، في العادة، يتجنب الذهاب في الليل إلى أي مكان قرب المستنقعات، وهكذا فإن شيئًا خاصًا هو الذي أغراه بالمغامرة بالسير في طريق «يو» ذلك المساء.. أجل، لا بد أنه سار للقاء شخص ما.»

وفي الصباح التالي، وصل الدكتور مورتيمر في مواعده تمامًا وبصحبه سير هنري باسكرفيل. كان سير هنري رجلًا قويًا ثابتًا ذا عينيْن سوداوين وحاجبين كثيفين، وكان يرتدي حلة من النسيج الصوفي الخشن، وكأنه يتأهب لرحلة في الخلاء.

وبعد المقدمات المعتادة أخرج سير هنري خطابًا وصله إلى الفندق في بريد الصباح. كان العنوان باسمه شخصيًا، وعلى فندق نورمبرلاند بالتحديد، وكان هذا شيئًا ملفتًا للنظر، فإن أحدًا لا يعرف أن الدكتور مورتيمر وسير هنري يقيمان في ذلك الفندق، ما لم يكن هناك من يقني أثرهما.



وبداخل الظرف كانت هناك قصاصة من الورق لا غير لصقت عليها رسالة مكونة من مجموعة كلمات مقصورة من إحدى الجرائد (وكان الواضح من ذلك أن المرسل يريد إخفاء خط يده). وكانت الرسالة تتألف من الكلمات التالية:

«إذا كنت تريد إنقاذ حياتك من الموت أو عقلك من الجنون فاجتنب السير فوق أرض المستنقعات.»

وفحص هولمز نسخته من صحيفة التايمز التي تعود إلى اليوم السابق، فأكشف أن المقال الافتتاحي يتضمن جميع كلمات الرسالة فيما عدا كلمة «المستنقعات» وعندما





نَظَرُوا لِلرَّسَالَةِ عَنْ كُتُبٍ ، اسْتَطَاعُوا أَنْ يَرَوْا أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ لَمْ تَكُنْ فِي الْوَاقِعِ مُلَصَّقةً عَلَى الْوَرَقَةِ - شَأْنٌ سَائِرُ الْكَلِمَاتِ - وَلَكِنَّهَا كَانَتْ مَكْتُوبَةً بِالْيَدِ وَيَبْدُو عَلَيْهَا عَدَمُ الْأَسْتِوَاءِ .

قَالَ هَوْلْمَز : « آه ، نَعَمْ ! لَقَدْ كُتِبَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ عَلَى عَجَلٍ ، وَرَبَّمَا بِرِيشَةٍ غَرِيبَةٍ .. يَبْدُو أَنَّهَا كُتِبَتْ فِي فُنْدُقٍ . »

وَأُلْغِزَ عَلَى سِيرِ هَنْرِي تَمَامًا ، وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ صَاحَ قَائِلًا : « تُرَى لِأَيِّ سَبَبٍ فِي الْوُجُودِ يُمَكِّنُ أَنْ يَتَّبَعَنِي شَخْصٌ مَا وَيُرْسِلَ إِلَيَّ مِثْلَ هَذَا الْإِنْذَارِ ؟ »

أَجَابَ هَوْلْمَز : « سَوْفَ نَتَعَرَّضُ لِهَذِهِ النُّقْطَةِ فِيمَا بَعْدُ ، وَلَكِنْ هَلْ حَدَثَ شَيْءٌ آخَرُ غَرِيبٌ ؟ »

قَالَ سِيرِ هَنْرِي وَهُوَ يَتَسَمَّى : « حَسَنٌ ، يَبْدُو أَنَّي فَقَدْتُ إِحْدَى فَرْدَتَيِ حِذَائِي الْجَدِيدِ الَّذِي أَشْتَرَيْتُهُ بِالْأَمْسِ . لَقَدْ وَضَعْتُ فَرْدَتِي الْحِذَاءِ خَارِجَ بَابِ غُرْفَةِ نَوْمِي لَيْلًا لِيَقُومَ

مَاسِحُ الْأَحْدِيَةِ بِتَلْمِيعِهِمَا ، وَفِي الصَّبَاحِ أَعَادَ الْغُلَامُ فَرْدَةً وَاحِدَةً ، دُونَ أَنْ يَسْتَطِيعَ التَّغْلِيلَ لِغِيَابِ الْفَرْدَةِ الْأُخْرَى . وَالشَّيْءُ الْمُثِيرُ لِلْغَضَبِ هُوَ أَنَّي لَمْ أَلْبَسِ الْحِذَاءَ بَعْدُ عَلَى الْإِطْلَاقِ . »

عَلَّقَ هَوْلْمَز قَائِلًا : « إِنَّهُ شَيْءٌ مُثِيرٌ لِلْغَضَبِ فِعْلًا ، وَلَكِنَّ الْحِذَاءَ الْمَفْقُودَ قَدْ يَكُونُ مُرْتَبِطًا - عَلَى نَحْوِ مَا - بِاللُّغْزِ الَّذِي نَلْهَتْ وَرَاءَهُ . يَجِبُ أَنْ نَنْتَظِرَ لِنَرَى مَا سَوْفَ يَكْشِفُ عَنْهُ الْبَحْثُ وَالتَّقْصِي . »

وَأَخْبَرَنَا سِيرِ هَنْرِي أَنَّهُ قَدْ سَمِعَ بِأَسْطُورَةِ الْكَلْبِ مِنْذُ وَقْتٍ بَعِيدٍ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَأْخُذْهَا أَبَدًا مَأْخَذَ الْجِدِّ . عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ وَافَقَ عَلَى أَنَّ عَمَّهُ سِيرِ تشارلز إِمَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ ارْتَعَبَ صُدْفَةً حَتَّى الْمَوْتِ مِنْ شَيْءٍ شَادَّ خَارِقٍ لِلطَّبِيعَةِ ، أَوْ رُبَّمَا أَرْعَبَهُ عِنْدَ الْبَوَابِ شَخْصٌ مَا عَنْ عَمَلٍ وَسَبَقٍ إِصْرَارٍ .

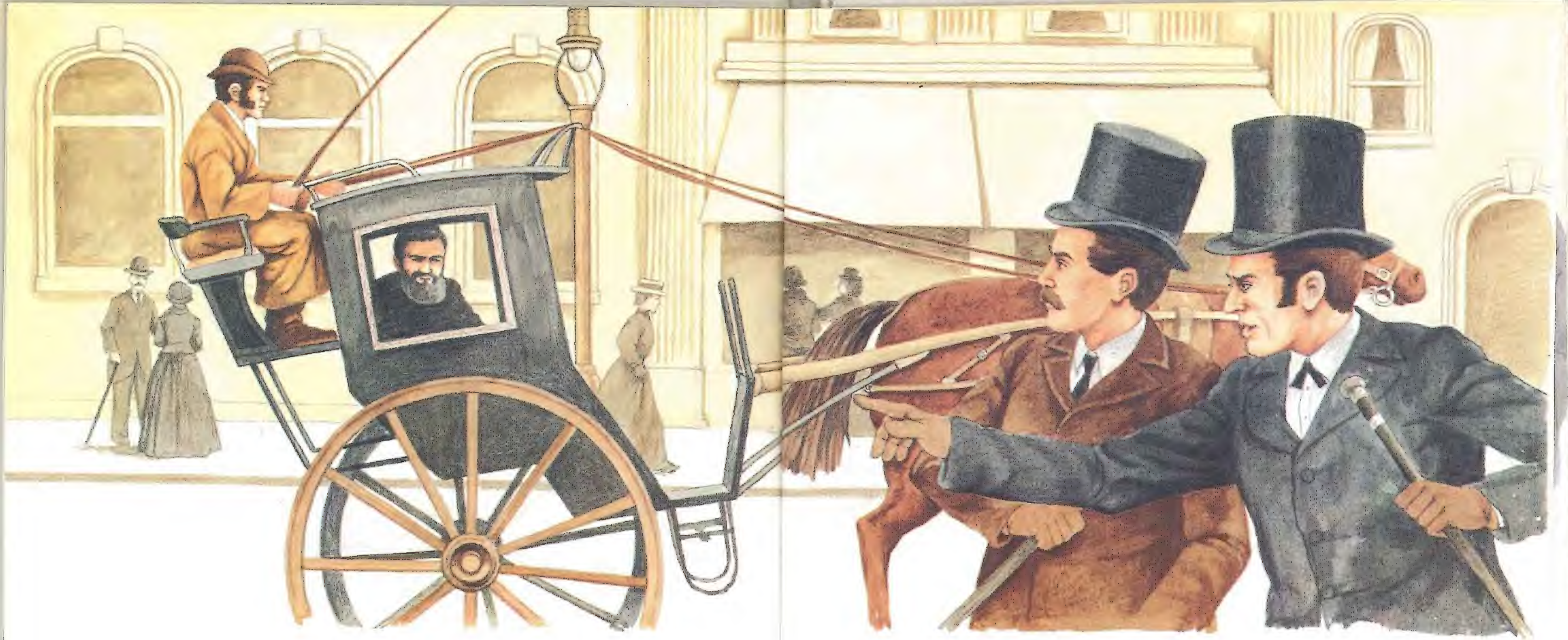
وَأَضَافَ الدَّكْتُورُ مَوْرْتِيمَرُ قَائِلًا : « يَبْدُو مِنَ الْخِطَابِ أَنَّ هُنَاكَ شَخْصًا يَعْرِفُ أَكْثَرَ مِمَّا نَعْرِفُ نَحْنُ عَمَّا يَجْرِي عَلَى أَرْضِ الْمُسْتَقْبَعَاتِ . »

قَاطَعَهُ هَوْلْمَز قَائِلًا لِسِيرِ هَنْرِي : « وَمَعَ ذَلِكَ ، فِيمَا أَنَّهُمْ يُحَدِّثُونَكَ مِنَ الْخَطَرِ ، يَا سِيرِ هَنْرِي ، فَإِنَّهُ يَبْدُو أَنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ لَكَ الضَّرَرَ . »

قَالَ سِيرِ هَنْرِي : « أَوْ رُبَّمَا يُرِيدُونَ لِسَبَبٍ مَا إصَابَتِي بِالذُّعْرِ ، وَلَكِنْ لَنْ يَمْنَعَنِي شَيْءٌ مِنَ الذَّهَابِ إِلَى مَتْرِي . سَوْفَ أَسْلُكُ حَالًا طَرِيقِي إِلَى قَضْرٍ بِاسْكِرْقِيلٍ ، مَهْمَا يَحْدُثُ مِنْ أَمْرِ . »

وَمَا إِنَّ غَادَرَنَا الضَّيْفَانِ ، حَتَّى أَصَرَ هَوْلْمَز عَلَى أَنْ نَسِيرَ وَرَاءَهُمَا حَتَّى الْفُنْدُقِ . وَتَبِعْنَاهُمَا وَهُمَا يَمْشِيَانِ فِي شَارِعِ أَكْسْفورد ثُمَّ يَدْلِفَانِ إِلَى شَارِعِ رِيجت ، وَكُنَّا حَرِصَيْنِ أَلَّا نَفْقِدَ مَرَّاهُمَا عَنْ بُعْدٍ . وَفَجْأَةً تَوَقَّفَ هَوْلْمَز قَائِلًا : « هَذَا هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي نَسُدُّهُ ، يَا وَاطْسُنْ ، يَقْبَعُ فِي تِلْكَ الْعَرَبَةِ . يَجِبُ عَلَى الْأَقْلِ أَنْ نُلْقِيَ عَلَيْهِ نَظْرَةً فَاحِصَةً . »





وَلَمَّا جَرَيْنَا نَحْوَ الْعَرَبَةِ لِنَنْظُرَ إِلَيْهِ عَنْ قُرْبٍ ، أَمَرَ الرَّجُلُ السَّائِقَ أَنْ يُلْهَبَ ظَهَرَ الْجَوَادِ لِيُسْرَعَ بِالْعَرَبَةِ بَعِيدًا . لَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَفْعَلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، بَيِّدَ أَنَّنَا نَجْحَنَا - بِنَظَرَةٍ خَاطِفَةٍ إِلَى الرَّجُلِ الَّذِي فِي الْعَرَبَةِ - فِي رُؤْيَةٍ لِحَيْتِهِ السُّودَاءِ الْكَثَّةِ وَعَيْنَيْهِ النَّافِذَتَيْنِ ، وَأَنَّ رَقْمَ تَسْجِيلِ الْعَرَبَةِ هُوَ ٢٧٠٤ .

تَوَجَّهَ هَوْلْمَزْ عَقِبَ ذَلِكَ إِلَى مَكْتَبِ اسْتِخْدَامٍ ، وَاسْتَأْجَرَ مُسَاعِدًا شَابًّا عَمِلَ مَعَنَا مِنْ قَبْلُ اسْمُهُ : كَارْتَرَايت . وَأَمَرَ هَوْلْمَزْ الشَّابَّ بِزِيَارَةِ كُلِّ الْفَنَادِقِ الَّتِي تَقَعُ فِي مِنتَقَةِ تَشِيرِنَغْ كروس ، وَالَّتِي مِنْ بَيْنِهَا فُنْدُقُ نورمبرلاند نَفْسُهُ ، وَالْأَسْتِئْذَانِ لِلتَّنْقِيبِ فِي سِلَالٍ وَصَنَادِيقِ الْمُهْمَلَاتِ بَحْثًا عَنْ نُسخَةٍ مِنْ جَرِيدَةِ «التايمز» الَّتِي صَدَرَتْ أَمْسٍ بِهَا ثُقُوبٌ فِي الْمَقَالَةِ

الْأَفْتِاحِيَّةِ . وَاعْتَرَفَ هَوْلْمَزْ لِكَارْتَرَايتِ بِأَنَّ فُرْصَةَ النِّجَاحِ فِي تِلْكَ الْمُهْمَّةِ ضَيْلَةٌ لِلْغَايَةِ ، وَلَكِنْ أَخْبَرَهُ أَنَّ يُبْرِقَ إِلَيْهِ فَوْرَ الْعُثُورِ عَلَى شَيْءٍ .

صَاحَ هَوْلْمَزْ قَائِلًا : «وَالآنَ ، يَا وَاطْسُنْ ، يَبْقَى أَمَامَنَا فَقَطْ أَنْ نَكْتَشِفَ شَخْصِيَّةَ سَائِقِ الْعَرَبَةِ ذَاتِ الرَّقْمِ ٢٧٠٤ ، وَنَجْمَعَ مَعْلُومَاتٍ أَكْثَرَ عَنْ صَدِيقِنَا الْمُتَلَحِّي الَّذِي تَمَكَّنَ مِنَ الْإِفْلَاتِ .»

وَحِلَالِ فِتْرَةِ الْعَصْرِ أَصَرَ هَوْلْمَزْ عَلَى أَنْ يَلْتَمِسَ الرَّاحَةَ وَالْإِسْتِجْمَامَ فِي مَعْرِضٍ لِلْفَنِّ الْحَدِيثِ ، وَعِنْدَمَا حَانَ وَقْتُ تَنَاوُلِ الشَّيْءِ قُمْنَا بِزِيَارَةِ سِرْ هَنْرِي فِي فُنْدُقِهِ . وَوَجَدْنَاهُ عَلَى مُنْبَسَطِ الدَّرَجِ خَارِجَ حُجْرَتِهِ ، يُرْغِي وَيُزِيدُ مِنَ الْغَضَبِ ، وَيُلَوِّحُ بِفَرْدَةٍ حِذَاءِ قَدِيمِ



أَسْوَدَ ؛ إِنَّ أَحَدَهُمْ لَمْ يَكْتَفِ بِسَرِقَةِ فَرْدَةٍ حِذَائِهِ الْبَنِيِّ الْجَدِيدِ ، بَلْ تَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى نَسْلِ أُخْرَى مِنْ حِذَائِهِ الْأَسْوَدِ الْقَدِيمِ .

صاح سِر هَنري : « لَعَمري ، إِنَّهُ شَيْءٌ يُثِيرُ السُّخْرِيَّةَ ، وَلَكِنَّهُمْ لَنْ يَقْلَتُوا بِالْأَعْيَبِ تِلْكَ . سَوْفَ أَشْكُو لِلْمُدِيرِ وَأَطَالِبُ بِالْتَّعْوِضِ اللَّازِمِ . أَلَا تَفْعَلُ هَذَا يَا سَيِّدُ هَوْلْمَز لَوْ كُنْتَ مَكَانِي ؟ »

تَمَتَّ هَوْلْمَز وَهُوَ يُفَكِّرُ بَعُمُقٍ : « إِنَّهُ أَمْرٌ غَرِيبٌ حَقًّا ، وَلَكِنْ هَا نَحْنُ نُمْسِكُ بَعْدَةَ خُيُوطٍ فِي أَيْدِينَا آخَرَ الْأَمْرِ . عَلَى أَنَّي أَعْتَقِدُ ، يَا سَيِّدُ هَنري ، أَنَّ أَفْضَلَ مَا تَفْعَلُهُ الْآنَ هُوَ الدَّهَابُ إِلَى قَصْرِ بَاسْكَرْفِيلِ فِي أَسْرَعِ وَقْتٍ مُمَكِنٍ . وَأَحَدُ سَبَابِ ذَلِكَ هُوَ أَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَكَ الْآنَ فِي لَنْدَن . »

وَقَفَزَ الدَّكْتُورُ مَوْرْتِيمَرُ بِشِدَّةٍ ، وَهُوَ يَسْأَلُ : « مَنْ الَّذِي يَتَّبَعُهُ ؟ »

أَجَابَ هَوْلْمَزُ : « لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقْدِمَ جَوَابًا شَافِيًّا ؛ وَلَكِنْ أَخْبِرْنِي : هَلْ هُنَاكَ شَخْصٌ ذُو لِحْيَةٍ كَثَّةٍ سَوْدَاءَ يَعِيشُ قُرْبَ الْمُسْتَنْقَعَاتِ ؟ »

أَجَابَ الدَّكْتُورُ مَوْرْتِيمَرُ : « أَلَسَيِّدُ بَارِيمُورُ فَحَسَبُ ، الْخَادِمُ الْأَوَّلُ لِسِير تشارلز . إِنَّ لَهُ لِحْيَةً سَوْدَاءَ الشَّعْرِ . وَهُوَ الْمَسْئُولُ عَنِ الْعِنَايَةِ بِالْقَصْرِ ، وَتُسَاعِدُهُ زَوْجَتُهُ فِي ذَلِكَ . »  
« يَجِبُ أَنْ نَعْرِفَ حَالًا مَا إِذَا كَانَ مَوْجُودًا بِالْقَصْرِ ، فَلَرُبَّمَا يَكُونُ قَدْ جَاءَ إِلَى لَنْدَن . »



وَتَنَاولَ هَوْلْمَزُ أَنْمُودَجًا رَسْمِيًّا لِبَرْقِيَّةٍ وَكَتَبَ فِيهِ : « هَلْ كُلُّ شَيْءٍ مُعَدٌّ لِاسْتِقْبَالِ سِير هَنري ؟ » وَأَرْسَلَ الْبَرْقِيَّةَ بِعُنْوَانٍ : « بَارِيمُورُ ، بِقَصْرِ بَاسْكَرْفِيلِ . »

ثُمَّ أَرْسَلَ بَرْقِيَّةً أُخْرَى إِلَى مُدِيرِ مَكْتَبِ الْبَرْقِ فِي « جَرْمِنْ » ، هَذَا نَصُّهَا : « هُنَاكَ بَرْقِيَّةٌ لِبَارِيمُورٍ لِيُسَلِّمَ لَهُ شَخْصِيًّا ؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا أَخْطِرُوا سِير هَنري بَاسْكَرْفِيلَ ، بِفَنْدُقِ نَوْرْتِمِرْلَانْدِ ، بِلَنْدَن . »

وَالْتَفَتَ هَوْلْمَزُ إِلَى الدَّكْتُورِ مَوْرْتِيمَرِ قَائِلًا : « حَدَّثَنِي أَكْثَرَ عَنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يُدْعَى بَارِيمُورُ . »

أَجَابَ الطَّيِّبُ : « لَقَدْ خَدَمْتُ عَائِلَةَ بَارِيمُورِ آلَ بَاسْكَرْفِيلِ عِدَّةَ أَجْيَالٍ ، وَهُمْ قَوْمٌ يَتَمَيَّزُونَ بِالْإِخْلَاصِ وَجَدِيرُونَ بِالثَّقَةِ . وَالْوَاقِعُ أَنَّ سِير تشارلز وَعَدَ بِأَنْ يَهَبَ كُلًّا مِنْ خَادِمِهِ وَزَوْجَتِهِ مَبْلَغَ خَمْسِمِئَةِ جُنْيَةٍ ، وَأَدْرَجَ ذَلِكَ فِي وَصِيَّتِهِ . »

سَأَلَ هَوْلْمَزُ فِي نَبْرَةٍ تَنْمُّ عَنِ الشَّكِّ : « وَهَلْ عَرَفُوا بِهَذَا الْأَمْرِ ؟ »

« أَجَلٌ ، فَلَقَدْ تَنَاولَ سِير تشارلز الْأَمْرَ فِي حَدِيثٍ لَهُ بِصَرَاحَةٍ . وَلَكِنْ ، يَا سَيِّدُ هَوْلْمَزُ ، عَسَى أَلَّا تَشُكَّ فِي كُلِّ شَخْصٍ تَلْقَى مِيرَاثًا شَرْعِيًّا عَنْ سِير تشارلز . لَقَدْ تَرَكَ لِي شَخْصِيًّا أَلْفَ جُنْيَةٍ فِي وَصِيَّتِهِ ! »

قَالَ هَوْلْمَزُ : « يَبْدُو أَنَّ الْقِيَمَةَ الْكُلِّيَّةَ لِضَيْعَةِ بَاسْكَرْفِيلِ تَبْلُغُ مِقْدَارًا كَبِيرًا مِنَ الْمَالِ . »

أَجَابَ الدَّكْتُورُ مَوْرْتِيمَرُ : « إِنَّهَا كَذَلِكَ فِي وَاقِعِ الْأَمْرِ ؛ فَإِنَّ إِيرَادَاتِ الضَّيْعَةِ وَحْدَهَا - أَيْ الْأَرْضِصَّةَ ، وَالنُّقُودَ ، وَالْإِيجَارَاتِ ، وَالْأَسْتِثْمَارَاتِ - تَصِلُ قِيَمَتُهَا إِلَى سَبْعِمِئَةٍ وَأَرْبَعِينَ أَلْفًا مِنَ الْجُنْيَهَاتِ . فَإِذَا أَضَفْنَا إِلَى ذَلِكَ الْقَصْرَ وَالْأَرْضِصِيَّ ، فَإِنَّ التَّرِكَةَ كُلَّهَا تُسَاوِي أَكْثَرَ مِنْ مِليونِ جُنْيَةٍ . غَيْرَ أَنَّ الْمَالِكَ يُمَكِّنُ أَنْ يُورِثَ الْإِيرَادَاتِ بِشَكْلِ مُنْفَصِلٍ عَنِ الْقَصْرِ وَالْأَرْضِصِيَّ . »

صاح هَوْلْمَزُ قَائِلًا : « يَا إِلَهِي ! هَا نَحْنُ أَمَامَ جَائِزَةٍ تُغْري الْمَرْءَ بِأَنْ يَفْعَلَ الْمُسْتَحِيلَ لِلْفَوْزِ بِهَا . لَكِنْ أَجِبْنِي عَنْ سُؤَالٍ وَاحِدٍ أَخِيرٍ ، يَا دَكْتُورُ مَوْرْتِيمَرُ : إِذَا مَا حَدَثَ مَكْرُوهٌ لِسِير هَنري ، فَمَنْ يَرِثُ الضَّيْعَةَ ؟ »



أجاب الدكتور مورتيمر: «نظراً لأن «رودجر»، الأخ الأصغر الفاسد لسير تشارلز، قد مات عزباً في جنوب أمريكا، فسوف تؤول الضيعة إلى ابن عم بعيد يدعى «جيمس ديسموند»، وهو كاهن متقدم في السن نسبياً ويقطن في شمال إنجلترا. ولقد زار هذا الرجل سير تشارلز في إحدى المناسبات فعلم أنه من المستحقين وراثته الضيعة، ولكنه - لسبب ما - رفض قبول الجزء المخصص له. ولما كان الأمر كذلك، فقد أصبح سير هنري حراً في أن يوصي بالجزء الأساسي المهم من التركة للشخص الذي يختاره». التفت هولمز إلى سير هنري قائلاً: «حسن، يا سير هنري، وهل أوصيت بشيء فعلاً؟»

«كلا، لم يكن لدي وقت لذلك، ولكنني بالتأكيد لا أوافق على رفض ابن عمي. إنني أعتقد أن ربع الضيعة من المال، مع الأرض نفسها يجب أن يسيرا جنباً إلى جنب حتى يتمكن صاحب الضيعة من الإبقاء عليها، وهذا يؤثر على الأنحاء المجاورة برمتها في نهاية الأمر».

قال هولمز: «هذا صحيح تماماً، ولكن حان الوقت الآن للتفكير في رحيلك إلى قصر باسكرفيل لتفقد أملاكك بنفسك. غير أنه يجب ألا تذهب بمفردك على أية حال. وبما أن وقت الدكتور مورتيمر لن يتسع لمرافقتك لأنشغاله بعمله الخاص، فإني أقترح أن يرافقك الدكتور واطسن».

فاجأني هذا الطلب، ولكن قبل أن أتمكن من الاعتذار، هز سير هنري يدي مصافحاً وهو يقول: «حسن، هذه منة منك لن أنساها. أشكرك جداً، يا دكتور واطسن». وهكذا فرض الأمر الواقع نفسه علي!

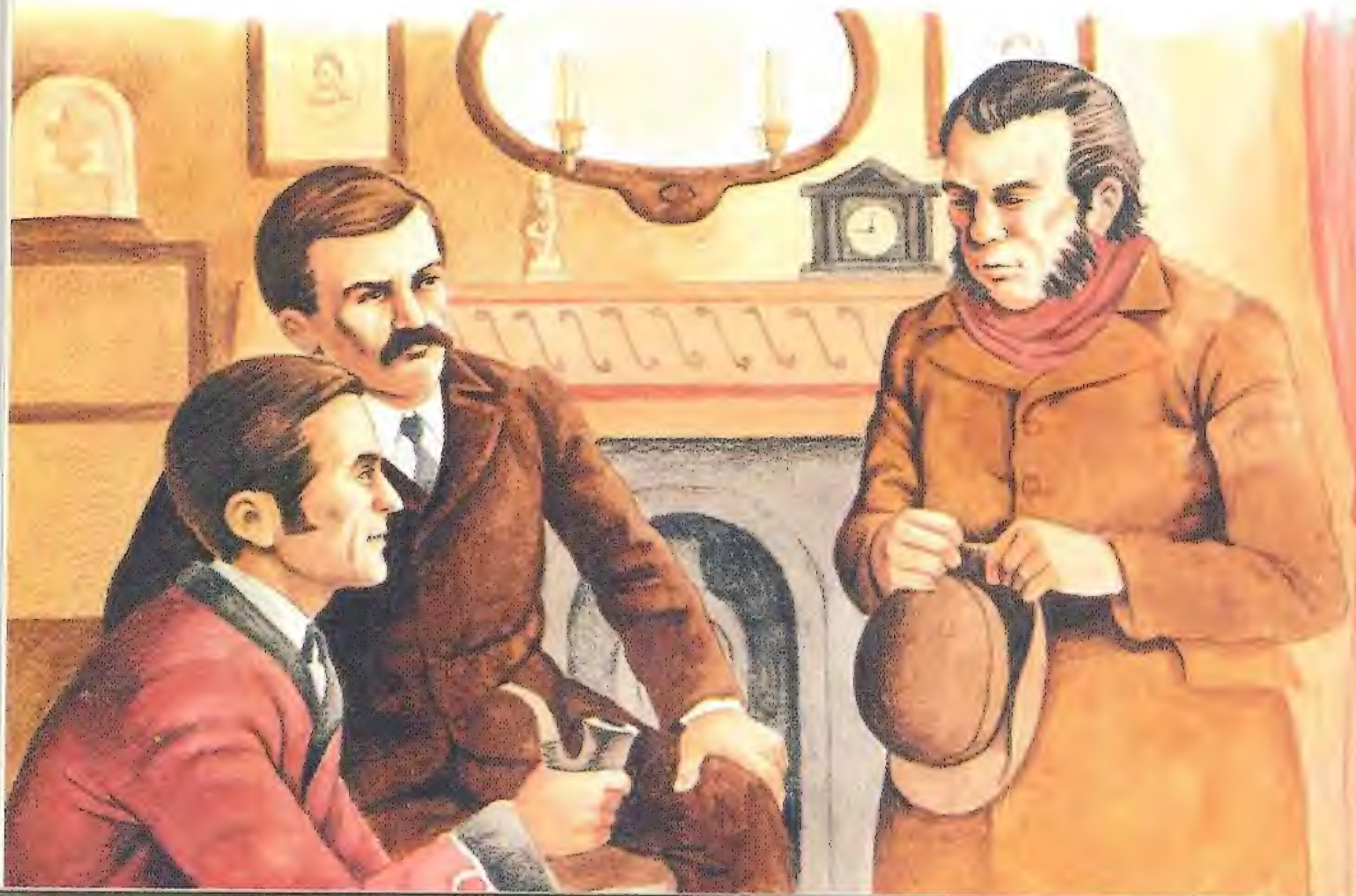
غير أن هولمز أوضح بأنه سيكون هو نفسه مشغولاً في لندن، كما أوصاني بأن أخطره أولاً بأول بتفاصيل الأحداث في ديفونشاير.

ولكن حدث شيء غريب عند مغادرتنا للفندق: فلقد استرعى نظر سير هنري فجأة ظهور حذائه البني الجديد المفقود في أحد أركان الحجرة!

صاح الرجل في استغراب: «إنه شيء مذهل حقاً! لقد فتشنا الحجرة جيداً قبيل الغداء، أنا والدكتور مورتيمر معاً، بحثاً عن هذا الحذاء». وأستدعوا الصبي المكلف بتنظيف الأحذية، ولكنه عجز تماماً عن تفسير الواقعة. وهكذا ظل الأمر برمته لغزاً خافياً.

وفي طريق عودتنا إلى المنزل في شارع بيكر أخذت، أنا وهولمز، نفكر بعمق في حلّ معميات هذه السلسلة الغريبة من الأحداث المستعصية على التفسير: تلقي الرسالة ذات الحروف المطبوعة - جاسوس العرب ذو اللحية السوداء - اختفاء الحذاء البني الجديد ثم ظهوره مرة أخرى - وأخيراً فقد الحذاء الأسود القديم. ولم نستطع التنسيق بين هذه الوقائع أو استنباط أية نتائج منطقية واضحة. بيد أنها كانت - بالتأكيد - مفاتيح للغز ما ينبغي حله.

على أننا تلقينا برقيتين قبيل الغداء: إحداهما من سير هنري، تقول: «سمعتُ للتو أن باريمور متواجد في قصر باسكرفيل»، والأخرى تحمل الكلمات التالية: «زرت ثلاثة





وَعِشْرِينَ فُنْدُقًا ، وَلَكِنْ لَمْ أَجِدْ فِيهَا - لِلْأَسَفِ - أَيَّ أَثَرٍ لِقُصَاصَاتٍ مِنْ صَحِيفَةِ التَّايْمز -  
كَارْتَرَايت .»

قَالَ هَوْلْمز مُعَلِّقًا : «وَهَكَذَا يُقَالُ مِنَّا خَيْطَانٍ مِنْ خَيْوِطِ التَّحَرِّي وَالْبَحْثِ ، غَيْرَ أَنَّنِي  
مَا زِلْتُ أَتَطَّلَعُ إِلَى الْحُصُولِ عَلَى مَعْلُومَاتٍ مِنْ سَائِقِ الْعَرَبَةِ ٢٧٠٤» .

وَلَمَّا عَلِمَ سَائِقُ الْعَرَبَةِ الْمَذْكُورَةِ بِالْأَسْتِغْسَارِ الْمُقَدَّمِ مِنْ هَوْلْمز فِي مَكْتَبِ تَسْجِيلِ  
الْعَرَبَاتِ ، بَادَرَ بِطَلَبِ مُقَابَلَتِنَا فِي الْمَسَاءِ . وَكَانَ الرَّجُلُ يُدْعَى جُونِ كَلَايْتُون .

قَالَ هَوْلْمز : «وَالآنَ يَا كَلَايْتُون ، أَخْبِرْنِي بِكُلِّ مَا تَعْرِفُ عَنْ ذَلِكَ الرَّكَّابِ الَّذِي  
أَسْتَأْجِرُ عَرَبَتَكَ لِيُرَاقِبَ هَذَا الْمَنْزِلَ فِي السَّاعَةِ الْعَاشِرَةِ مِنْ صَبَاحِ الْيَوْمِ ، ثُمَّ سَارَ بِهَا بَعْدَ  
ذَلِكَ فِي شَارِعِ رِيحْتِ إِثْرَ أَثْنَيْنِ مِنَ السَّادَةِ» .

أَجَابَ كَلَايْتُون : «حَسَنًا ، يَا سَيِّدِي . قَالَ لِي الرَّجُلُ إِنَّهُ مُخْبِرٌ سِرِّيٌّ ، وَرَجَانِي أَلَّا  
أُطْلِعَ أَحَدًا عَلَى اسْمِهِ» .

«وَمَا اسْمُهُ؟»

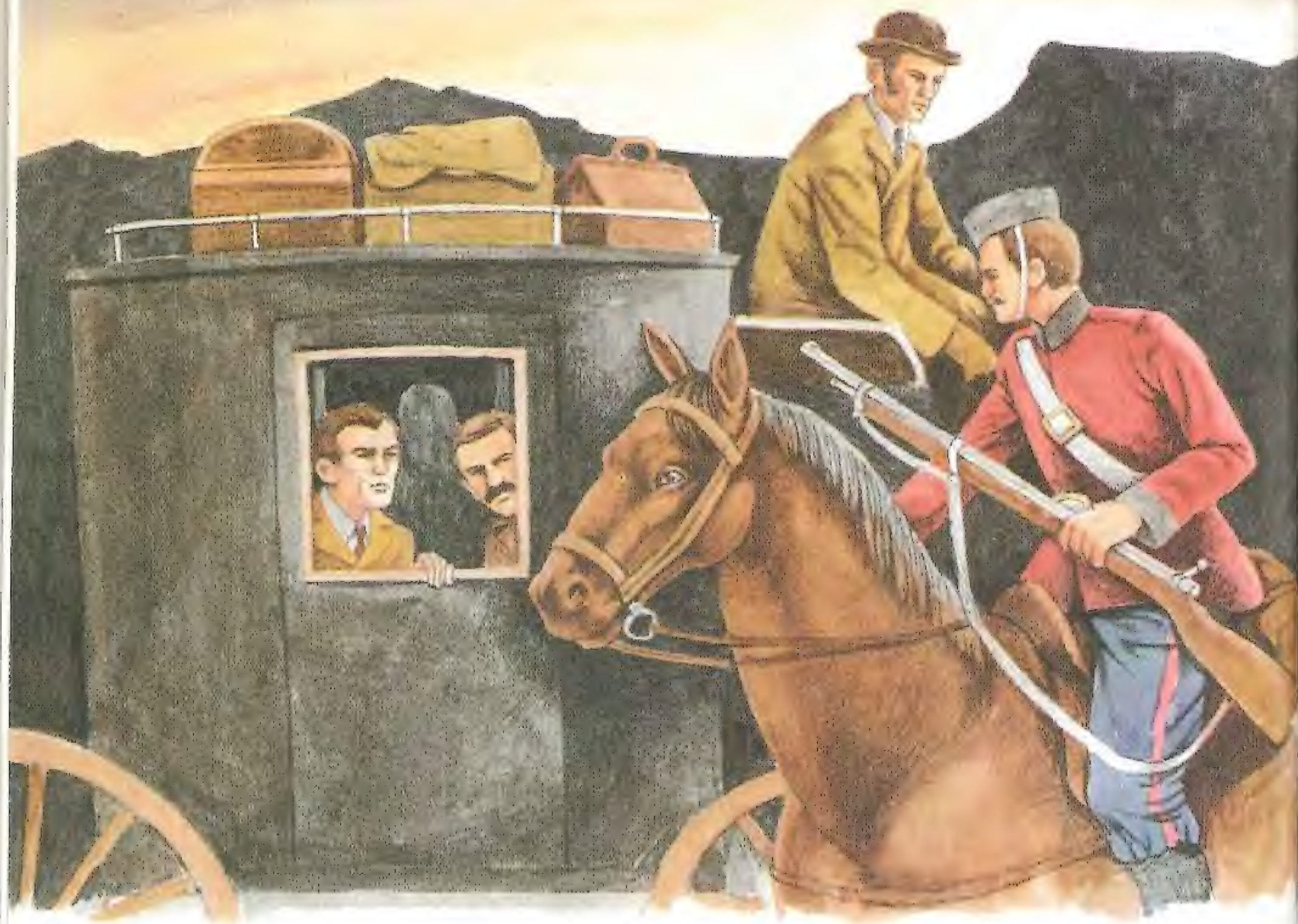
«قَالَ إِنَّهُ : شِرْلُوكْ هَوْلْمز» .

وَلَبَّرَهُ وَجِيزَةً ظَلَّ هَوْلْمز فِي ذُهُولٍ صَامِتٍ ؛ وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَنْفَجَرَ ضَاحِكًا وَهُوَ  
يُعَلِّقُ بِقَوْلِهِ : «إِنَّهُ اخْتِيَارٌ بَارِعٌ ، يَا وَاطْسُن ! يَجِبُ أَنْ تَعْتَرِفَ بِذَلِكَ» .

وَلَمَّا سَأَلَ هَوْلْمز كَلَايْتُونُ أَنْ يَصِفَ الرَّكَّابَ ، قَالَ الْآخِرُ إِنَّهُ رَجُلٌ مُتَوَسِّطُ الطَّوْلِ ،  
حَسَنُ الْهِنْدَامِ ، ذُو وَجْهِ شَاحِبٍ تَحْفُ بِهِ لِحْيَةٌ مُرَبَّعَةٌ سَوْدَاءُ .

وَأَنْتَهَتْ أَقْوَالُ كَلَايْتُونِ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ ، فَسَمَحَ لَهُ هَوْلْمز بِالْإِنْصِرَافِ بَعْدَ أَنْ نَفَحَهُ  
نِصْفَ جُنْيَةٍ وَاعِدًا بِإِيَّاهُ بِنِصْفِ آخَرٍ إِذَا مَا أَمَدَّهُ بِمَعْلُومَاتٍ أَكْثَرَ .

قَالَ لِي هَوْلْمز حِينَئِذٍ : «يَبْدُو أَنَّنَا قَدْ وَصَلْنَا فِي لَنْدَنِ إِلَى جِدَارٍ مُصَمَّتٍ عَقِيمٍ . رَبِّمَا  
تَجِدُ الْحَالَ أَفْضَلَ فِي دِيْقُونْشَايِر ، غَيْرَ أَنَّنِي قَلِقْتُ مِنْ إِرْسَالِكَ فِي هَذِهِ الْمُهْمَةِ الْخَطِيرَةِ ، يَا  
وَاطْسُن . إِنَّهَا مُهْمَةٌ كَثِيرَةٌ مُحْفُوفَةٌ بِالْمَكَارِهِ ، وَلَسَوْفَ أَتَفَسَّسُ الصُّعْدَاءَ حِينَ تَعُودُ سَلِيمًا



مُعَافَى إِلَى شَارِعِ بِيكِر» .

وَرَأَفَقَنِي هَوْلْمز إِلَى مَحَطَّةِ السَّكَّةِ الْحَدِيدِيَّةِ ، وَأَعْطَانِي بَعْضَ التَّوْجِيهَاتِ الْخِتَامِيَّةِ :  
يَجِبُ أَنْ أَحْمِلَ مُسَدَّسِي فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ ، وَأَلَّا أَدْعَ سِيرَ هَنْزِي يَغِيبُ عَنْ نَاضِرِي ،  
كَمَا يَجِبُ أَنْ أَتَأَكَّدَ مِنْ عَدَمِ خُرُوجِهِ بِمُفَرَّدِهِ مِنَ الْقَصْرِ .

كَانَ سِيرُ هَنْزِي يَتَطَّلَعُ بِشَغَفٍ إِلَى رُؤْيَا ضَيْعَتِهِ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى . وَحَمَلْتُنَا إِحْدَى الْعَرَبَاتِ  
مِنَ الْمَحَطَّةِ إِلَى الْقَصْرِ عَبْرَ حَقُولٍ شَاسِعَةٍ تُحِيطُ بِنَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، إِلَى أَنْ أَتَيْنَا إِلَى  
الْمُنْحَنِ الطَّوِيلِ الْكَثِيبِ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْمُسْتَنْقَعَاتِ ، وَالَّذِي تَتَخَلَّلُهُ إِلَى الْخَلْفِ سِلْسِلَةٌ  
مِنَ التَّلَالِ الْبَعِيدَةِ . وَعِنْدَ تَوَعُّدٍ مُرْتَفِعٍ مِنَ الْأَرْضِ رَأَيْنَا فَجَاءَةً جُنْدِيًّا يَحْمِلُ بُنْدُقِيَّةً مُنْطَبِحًا  
صَهْوَةً جَوَادِهِ . وَلَمَّا عَلَتْ الدَّهْشَةُ وَجُوهَنَا لِمَرَّاهُ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ ، فَسَّرَ لَنَا سَائِقُ الْعَرَبَةِ  
سَبَبَ وَجُودِهِ قَائِلًا إِنَّ مُجْرِمًا خَطِرًا اسْمُهُ «سِيلْدَن» هَرَبَ مِنْ سِجْنِ بَرْنِسْتُون قَبْلَ ثَلَاثَةِ



أيام ، وإن الحراس يجولون في المنطقة بحثاً عنه ، ويراقبون جميع الطرق والمحطات .  
وصعدنا هذا المرتفع النائي إلى أن بلغنا قمته ، ثم أخذنا في الهبوط إلى الجزء  
الموحش من أرض المستنقعات . وبعداً إلى أسفل ، رأينا قصر باسكرفيل للمرة الأولى .  
وبدا لنا أحد جوانبه كالحا محطماً ، ولكن الجزء الذي جدده تشارلز بدا جميلاً جداً في  
الواقع . وكان القصر مُحاطاً بأشجار البلوط والتنوب القميصة التي توقفت عن النمو ،  
وشكلت طريقاً كثيباً يسلكه المار من المنزل حتى الباب الأمامي للقصر .



كان باريمور وزوجته في استقبالنا . ولم يلبث الدكتور موريمر أن تركنا وعاد إلى  
بيته ، ثم وجدنا أنفسنا فجأة داخل قاعة فسيحة شامخة جدرانها مغطاة بقشرة خشب  
البلوط ، وتزينها صور زيتية لأفراد العائلة ، وشعارات نبالة مختلفة الأشكال ، ورؤوس  
أيائل مقتنصة ، وما إلى ذلك مما يزين قصور النبلاء . وكانت كل هذه الأشياء تُثير في  
نفوسنا مشاعر قاتمة كثيفة ، بالرغم من وهج النيران المتأججة في المدفأة والذي يوحى  
بالدفء والحياة . وكانت غرفة الطعام أشد قتامة ، علقت على جدرانها صور زيتية  
أخرى ، وتنتهي في أحد أطرافها بمنصة كبيرة للموسيقى والغناء ، ولكن غرفة البلياردو  
الحديثة ، التي توجهنا إليها بعد العشاء ، أشاعت فينا شيئاً من البهجة والمرح .

وقبل أن نأوي ليلاً إلى الفراش ، نظرت من نافذة غرفة النوم ، وأخذت في تأمل  
مُحيط القصر . كان القمر يرسل ضوءه من خلال السحب المتراكضة ، وكانت  
الأشجار تهتز مع انطلاق الرياح . ولاح لعيني في الأفق البعيد ذلك المنحنى الخفيض  
الذي يؤدي إلى أرض المستنقعات المشؤومة ... ثم سمعت ، على حين غرة ، صوتاً غريباً  
أشبه بنشيج امرأة ... كان نشيجاً مختبئاً مكتوماً ! وجلست في فراشي أنصت ، غير أنني  
لم أسمع سوى رنين جرس الساعة الكبيرة المعلقة على أحد جدران القاعة .

وفي الصباح التالي ، سألت باريمور عن الصوت الذي سمعته ، ولكنه أجاب - في  
تأكيد - لا بد أنني قد أخطأت السمع ، فمن المستحيل أن يكون الصوت هو صوت  
زوجته مثلاً - وهي المرأة الوحيدة في القصر . على أنني سرعان ما تبينت كذبه ، إذ  
التقيت بالسيدة باريمور في أحد الدهايز التي بين الحجرات ، فوجدت عينيها حمراوين ،  
وجفنيها متورمين . وعجبت لماذا يخفي باريمور الحقيقة ، وهل يمكن أن يكون هو  
الرجل الملتحي الذي رأيته في لندن ؟ وثارت شكوكي إلى أبعد من ذلك حين سرت  
عبر المستنقعات إلى مكتب بريد جرمن حيث اكتشفت - عند استفساري - أن الفتى  
الساعي لم يسلم برفقة سير هنري إلى باريمور شخصياً - كما كنا نظن - لأن السيدة باريمور  
اعتذرت حينئذ بأن زوجها مشغول في الدور العلوي من القصر .

وعندما واصلت السير عبر المستنقعات ، سمعت وقع أقدام خلفي ، ثم صوتاً يحيني





بِاسْمِي . وَالتَفْتُ مُتَوَقِّعًا أَنَّ أَرَى الدُّكْتُورَ مَوْرْتِيمَرَ ، غَيْرَ أَنَّنِي رَأَيْتُ رَجُلًا غَرِيبًا ... كَانَ شَابًّا فِي الْعَقْدِ الرَّابِعِ مِنْ عُمُرِهِ ، صَغِيرَ الْجِسْمِ ، حَلِيقَ الدَّقْنِ ، ذَا شَعْرٍ كَثَانِيٍّ وَفَكَ مَائِلٍ ، يَرْتَدِي سِتْرَةً رَمَادِيَّةً وَقُبْعَةً مِنَ الْقَشِّ . وَكَانَ يُعَلِّقُ عَلَى كَتِفِهِ صُنْدُوقًا مِنَ الصَّفِيحِ يَحْوِي عَيْنَاتٍ نَبَاتِيَّةً ، كَمَا كَانَ يَحْمِلُ فِي إِحْدَى يَدَيْهِ شَبَكَةً خَضْرَاءَ لِإِتْقَاطِ الْفَرَاشَاتِ .

قَالَ الْقَادِمُ الْجَدِيدُ : «أَنْتَ الدُّكْتُورُ وَاطْسُنْ ، عَلَى مَا أَظُنُّ . أَنَا سَتِيلْتُونُ مِنْ بَيْتِ مِيرِيَّتِ . كَيْفَ حَالُ سِيرِ هَنْرِي ؟»

أَجَبْتُهُ قَائِلًا : «إِنَّهُ عَلَى مَا يُرَامُ . أَشْكُرُكَ .»

أَرَدَفَ سَتِيلْتُونُ : «يُدْهَشُنِي أَنَّ يَخْتَارَ الرَّجُلُ أَنْ يَعِيشَ هُنَا بَعْدَ أَنْ سَمِعَ عَنْ الْأَحْدَاثِ الْمُرْعِبَةِ الْأَخِيرَةِ .. مِنْ الْوَاضِحِ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ بِالْخُرَافَاتِ .»  
«أَظُنُّ ذَلِكَ .»

«لَقَدْ سَمِعْتُ ، وَلَا شَكَّ ، قِصَّةَ الشَّجَرِ ؟»

أَجَبْتُ ، وَأَنَا فِي حَيْرَةٍ مِمَّا يَرْمِي إِلَيْهِ : «أَجَلٌ ، سَمِعْتُ .»

وَوَاصَلَ عَالِمُ الْحَشَرَاتِ كَلَامَهُ قَائِلًا : «إِنَّ أَهْلَ الْمِنْطَقَةِ يُؤْمِنُونَ تَمَامًا بِصِدْقِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ ، وَهُمْ يَقُولُونَ إِنَّهُمْ رَأَوْا رَأْيَ الْعَيْنِ ذَلِكَ الْمَخْلُوقَ الْمُتَوَحِّشَ الَّذِي يَمْرَحُ فَوْقَ

تَرَى الْمُسْتَنْقَعَ ، كَمَا يُرَجِّحُونَ أَنَّ سِيرَ تشارلزَ قَدْ شَاهَدَ شَيْئًا مَا أَرَعَبَهُ فِي طَرِيقِ «يُو» فِي اللَّيْلَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ حَيَاتِهِ ... كَانَ مَعْرُوفًا أَنَّهُ مَرِيضٌ بِالْقَلْبِ .»  
بَادَرْتُهُ بِالسُّؤَالِ : «هَلْ كُنْتَ عَلَى دِرَايَةٍ بِمَرَضِهِ ذَاكَ ؟»

«أَجَلٌ ، فَلَقَدْ أَشَارَ صَدِيقِي الدُّكْتُورُ مَوْرْتِيمَرَ ذَاتَ مَرَّةٍ إِلَى هَذَا الْمَرَضِ . وَإِنِّي أَعْتَقِدُ شَخْصِيًّا أَنَّ سِيرَ تشارلزَ مَاتَ مِنَ الرَّعْبِ . مَا رَأَيْ السَّيِّدَ شِرْلُوكَ هُوْلْمَزَ فِي ذَلِكَ ؟»  
وَعَاقَتُنِي دَهْشَةٌ شَدِيدَةٌ عَنِ الْإِجَابَةِ ، وَاسْتَأْنَفَ سَتِيلْتُونُ حَدِيثَهُ قَائِلًا : «نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ وُجُودَكَ هُنَا ، يَا دَكْتُورُ وَاطْسُنْ ، هُوَ أَبْلَغُ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ السَّيِّدَ هُوْلْمَزَ مُهْتَمٌّ بِالْأَمْرِ ... هَلْ سَيَحْضُرُ إِلَيْنَا بِنَفْسِهِ ؟»

«لَيْسَ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ عَلَى الْأَقْلَى ، فَلَدَيْهِ عَمَلٌ فِي لَنْدَنَ يُرِيدُ أَنْ يَفْرُغَ مِنْهُ .»  
وَهُنَا أَفْصَحَ سَتِيلْتُونُ عَنْ رَغْبَتِهِ قَائِلًا : «إِذَا كُنْتَ تَقُومُ بِبَعْضِ التَّحْرِيَّاتِ ، فَقَدْ اسْتَطِيعَ مُسَاعَدَتُكَ عَلَى نَحْوِ مَا .»  
أَجَبْتُهُ فِي نَبْرَةٍ جَافَةٍ بِبَعْضِ الشَّيْءِ : «أَوَكُذِّبُكَ أَنَّ هَذِهِ مُجَرَّدُ زِيَارَةٍ وَدِّيَّةٍ لِسِيرِ هَنْرِي ، وَأَنْنِي فِي غِنَى عَنْ أَيَّةِ مُسَاعَدَةٍ .»

وَاسْتَأْنَفْنَا السَّيْرَ عَلَى الطَّرِيقِ نَحْوَ بَيْتِ مِيرِيَّتِ حَيْثُ يَقُطُنُ سَتِيلْتُونُ مَعَ أُخْتِهِ . وَأَرَدَفَ الرَّجُلُ قَائِلًا : «أَرْضُ الْمُسْتَنْقَعَاتِ هِيَ مَكَانٌ مُخِيفٌ حَقًّا ، وَمَحْفُوفٌ بِالْمَخَاطِرِ كَذَلِكَ ، فَهُنَاكَ فِي غُورِهَا الْعَمِيقِ تَوْجَدُ حَمَاطَةٌ جَرْمِينَ الشَّاسِعَةِ الْعَرِيضَةِ ، تِلْكَ الْحَمَاطَةُ الْغَادِرَةُ الَّتِي تَبْتَلِعُ فِي أَوْحَالِهَا جَوَادًا شَارِدًا ضَخْمًا كُلُّ أُسْبُوعَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةِ أَسَابِيعٍ ! أَفْرَادٌ قَلِيلٌ لِلْغَايَةِ هُمُ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ الطَّرِيقَ الْوَحِيدَ الْآمِنَ لِلْخُرُوجِ مِنْ هَذِهِ الْحَمَاطَةِ ، غَيْرَ أَنَّنِي أَعْرِفُ هَذَا الطَّرِيقَ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ ، وَاسْتَخْدِمُهُ بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ خِلَالَ تَعَقُّي لِلْفَرَاشَاتِ ، أَوْ خِلَالَ بَحْثِي عَنْ نَبَاتَاتِ الْمُسْتَنْقَعِ الشَّدِيدَةِ النُّدْرَةِ .»

وَسَمِعْنَا - عَلَى حِينِ غُرَّةٍ - صَوْتًا غَرِيبًا أَشْبَهَ بِعَوَاءِ كَلْبٍ أَوْ نُوحٍ أَمْرَأَةٍ . وَسَأَلْتُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقَلَقِ : «مَا هَذَا ؟»

أَجَابَ الرَّجُلُ : «يَزْعُمُ الْفَلَّاحُونَ عَنْ ثِقَةٍ تَامَّةٍ أَنَّهُ شَبَحُ بَاسْكَرْفِيلِ .»



«مِنَ الْعَبَثِ أَنْ يُصَدِّقَ الْمَرْءُ مِثْلَ هَذَا الْهَرَاءِ..» قُلْتُهَا وَقُشْعِرِيَةُ الْخَوْفِ قَدْ أَخَذَتْ تَسَلُّهُ إِلَى قَلْبِي، غَيْرَ أَنَّنِي لَمْ أَلْبَثُ أَنْ رَكَنْتُ إِلَى حُكْمِ الْعَقْلِ وَالتَّفَكُّيرِ السَّلِيمِ.

وَوَاصِلَ سَتِيلْتُونِ حَدِيثَهُ قَائِلًا: «حَسَنٌ، إِنَّ أَشْيَاءَ خَارِقَةً لِلطَّبِيعَةِ كَثِيرًا مَا تَحْدُثُ هُنَا فِي الْمُسْتَنْقَعَاتِ، مِثْلَ صَرَخَاتِ غَرِيبَةٍ تُنْذِرُ بِالشُّومِ. إِنَّ الْمَكَانَ شَاذٌ وَعَجِيبٌ. مَاذَا تَعْنِي مِثْلًا تِلْكَ الدَّوَائِرُ الْحَجَرِيَّةُ عَلَى جَانِبِ التِّل؟»

أَجَبْتُهُ: «لَعَلَّهَا حَظَائِرُ لِلْخِرَافِ.»

قَالَ: «كَلَّا. إِنَّهَا أَطْلَالُ كُهُوفٍ كَانَ يَأْوِي إِلَيْهَا الْإِنْسَانُ الْقَدِيمُ، إِنَّهَا آثَارُ حَزِينَةٍ تُعِيدُ إِلَى أَذْهَانِنَا ذِكْرَى كِفَاحِ الْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ مِنْ أَجْلِ الْبَقَاءِ.»

وَأَسْتَأْذَنَ فِي الْإِنْصِرَافِ، ثُمَّ انْطَلَقَ - حَامِلًا شَبَكَتَهُ - فِي إِثْرِ فَرَاشَةٍ مُلَوْنَةٍ. وَرَأَيْتُهُ يَخْتَفِي عَنْ بَصَرِي بَيْنَ الشَّجَرَاتِ الْخَفِيفَةِ.

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، سَمِعْتُ وَقَعَ أَقْدَامٍ تَقْتَرِبُ، وَدُهُشْتُ لِرُؤْيَةِ أَمْرَأَةٍ شَابَّةٍ تَسِيرُ نَحْوِي. وَرَجَحْتُ أَنْ تَكُونَ الْمَرْأَةُ أُخْتُ سَتِيلْتُونِ الَّتِي أَتَى ذِكْرُهَا أَمَامِي مِنْ قَبْلُ... كَانَتْ فَارِعَةً الطَّوْلِ، نَحِيلَةَ الْقَدِّ، سَمْرَاءَ اللَّوْنِ، شَدِيدَةَ الْجَاذِبِيَّةِ. وَنَظَرْتُ مُبَاشَرَةً فِي عَيْنَيْ، ثُمَّ قَالَتْ بِسُرْعَةٍ وَأَقْتِضَابٍ: «عُدْ!.. عُدْ إِلَى لَنْدُنِ فِي الْحَالِ.»

سَأَلْتُهَا عَلَى الْفَوْرِ: «لَأَيِّ سَبَبٍ أَعُودُ؟ لَقَدْ قَدِمْتُ مِنْذُ قَتْرَةٍ وَجِيزَةٍ.»

«عُدْ وَلَا تَسَلْ عَنِ السَّبَبِ؛ فَلَيْسَ لَدَيَّ وَقْتُ لِلْإِبَانَةِ وَالتَّفْصِيلِ.»



صَاحَ سَتِيلْتُونُ عِنْدَمَا عَادَ: «إِذَنْ فَقَدْ تَعَرَّفَ كُلُّ مِنْكُمَا بِالْآخِرِ!.. هَذِهِ أُخْتِي.» وَبَادَرَتْ السَّيِّدَةُ بِالْقَوْلِ: «كُنْتُ أَتَحَدَّثُ مَعَ سِيرِ هَنْرِي عَنِ الْمُسْتَنْقَعَاتِ.»

قَاطَعْتُهَا فِي الْحَالِ: «كَلَّا، لَسْتُ سِيرِ هَنْرِي، وَلَكِنِّي صَدِيقٌ لَهُ.. أَسْمِي وَاطْسُن.» قَالَتْ السَّيِّدَةُ: «لَقَدْ حَدَّثَ لُبْسٌ. هَلَّا تَفَضَّلْتَ إِلَى الدَّاخلِ!»

كَانَ بَيْتُ مِيرِيَّتْ أَحَدَ الْمَنَازِلِ الْمُنْعَزَلَةِ فِي مِنتَقَةِ الْمُسْتَنْقَعَاتِ. وَكَانَ فِي الْأَصْلِ مَزْرَعَةً يَابِغَةً، وَلَكِنَّهَا حُوِّلَتْ إِلَى بَيْتٍ رِيفِيٍّ.

قَالَ سَتِيلْتُونُ عِنْدَ دُخُولِنَا: «إِنَّهَا لَبَقَعَةٌ غَرِيبَةٌ لِلسُّكْنَى، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ غَيْرَ أَنَّهَا أَهْدَأُ كَثِيرًا مِنْ مَدْرَسَتِي فِي يوركشاير.. كَمَا أَنَّ الْمِنْطَقَةَ تَهْمُنِي كَعَالِمِ حَشَرَاتٍ. لَقَدْ حَاقَ بِالمَدْرَسَةِ وَبَاءَ مَشُومٌ أَنْتَهَى بِمَوْتِ ثَلَاثَةِ تَلَامِيذٍ، فَاضْطُرَرْتُ إِلَى إِغْلَاقِهَا.»

وَبَيْنَمَا نَحْنُ نَتَبَادَلُ الْحَدِيثَ، أَتَانِي شُعُورٌ بِالدَّنْبِ لِتَرْكِي سِيرِ هَنْرِي بِمُفْرَدِهِ طَوَالَ هَذَا الْوَقْتِ، فَاسْتَأْذَنْتُ فِي الْإِنْصِرَافِ وَقَفَلْتُ رَاجِعًا إِلَى الْقَصْرِ عَبْرَ الْمُسْتَنْقَعَاتِ.

وَلَمْ أَكْذُ أَمْسِي نِصْفَ مِيلٍ حَتَّى فُوجِئْتُ بِالْإِنْسَةِ سَتِيلْتُونِ تَسِيرُ أَمَامِي. قَالَتْ: «أَرْجُوكَ أَنْ تَتَسَّى مَا قُلْتَهُ عَنْكَ... كُنْتُ أَعْنِي سِيرِ هَنْرِي بِتِلْكَ الْكَلِمَاتِ.. هُنَاكَ خَطَرٌ يَتَهَدَّدُ حَيَاتُهُ فِي هَذَا الْمَكَانِ.. أَرْجُوكَ دَعُهُ يَرْحَلُ فِي الْحَالِ.»

«وَلَكِنْ تَرَى مَا الْخَطَرُ الَّذِي يَتَهَدَّدُهُ؟»

«أَنْتَ تَعْرِفُ قِصَّةَ الشَّجَحِ بِالتَّأَكِيدِ؟»

أَجَبْتُهَا بِحِدَّةٍ: «أَنَا لَا أَوْ مِنْ مِثْلِ هَذَا الْهَرَاءِ.»

قَالَتْ فِي إِصْرَارٍ: «وَلَكِنِّي أَوْ مِنْ بِالْقِصَّةِ فِعْلًا. إِنَّ حَيَاةَ هَنْرِي مُعَرَّضَةٌ لِلْخَطَرِ طَالَمَا بَقِيَ هُنَا. يَجِبُ أَنْ أَعُودَ أَدْرَاجِي الْآنَ حَتَّى لَا يَشُكَّ أَخِي فِي شَيْءٍ.»

وَاصَلْتُ السَّيْرَ إِلَى قَصْرِ بَاسْكَرْفِيلِ، وَعَقَلِي مَشْحُونٌ بِمَخَافٍ غَامِضَةٍ. وَبِنَاءً عَلَى تَعْلِيمَاتِ هُولْمزِ شَرَعْتُ فِي إِرسَالِ خِطَابَاتٍ يَوْمِيَّةٍ إِلَى عُنُونِهِ فِي لَنْدُنِ، تَحْوِي كُلَّ مَا رَأَيْتُ أَوْ سَمِعْتُ بِالتَّفْصِيلِ.



اعْتَدْنَا أَنْ نَلْتَقِيَ - أَنَا وَسِير هَنري - بالسَّيِّدِ سَتِيلْتون وَأُخْتِهِ فِي بَيْتِ مِيرِيَّت بَيْنَ حَيْنٍ وَآخَرَ ، وَكُنَّا نَتَنَاوَلُ طَعَامَ الْغَدَاءِ مَعَهُمَا أَحْيَانًا . وَلاَحَظْتُ أَنَّ الرَّجُلَ يَتَمَيَّزُ بِخُشُونَةٍ فِي الطَّبْعِ ، وَأَنَّهُ يَجْنَحُ فِي مُعَامَلَةِ أُخْتِهِ إِلَى الْقَسْوَةِ وَالْأَسْتِبدَادِ . كَانَتْ أُخْتُهُ بَارِعَةً الْجَمَالِ بِلا جَدَالٍ غَيْرِ أَنَّ لَوْنَهَا كَانَ أَشَدَّ سُمْرَةً مِنْ أَيْةِ أَمْرَأَةٍ إِنْجِلِيزِيَّةٍ فِي الْعَادَةِ ، كَمَا بَدَأَ مِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ سِير هَنري قَدْ مَالَ بِشِدَّةٍ إِلَيْهَا . وَلَمْ يَخَفْ هَذَا الْمَيْلُ عَلَى ذِكَاةِ السَّيِّدِ سَتِيلْتون فِي الْوَاقِعِ ، وَلَكِنَّهُ قَابَلَ الْأَمْرَ بِجَفَاءٍ وَاضِحٍ .

وَقَابَلْتُ كَذَلِكَ السَّيِّدَ فِرَانْكلاند الَّذِي يَقْطُنُ فِي قَصْرِ لافتر . كَانَ رَجُلًا مُتَطَرِّفًا غَرِيبَ الْأَطْوَارِ ، تُسَيِّطُ عَلَى ذَهْنِهِ فِكْرَةُ النُّضَالِ لِصَوْنِ الْمَزَايَا وَالْحُقُوقِ الْقَدِيمَةِ لِمُلَّاكِ الْعُزْبِ وَالْمَزَارِعِ ، وَكَانَ يَجِدُ مُنْعَةً خَاصَّةً فِي الذَّهَابِ إِلَى الْمَحَاكِمِ لِدِفَاعِ عَنِ الْحُقُوقِ الْإِقْطَاعِيَّةِ الْغَابِرَةِ لِهَوْلَاءِ مِثْلِ حَقِّ مِلْكِيَّةِ الطُّرُقِ الْجَانِبِيَّةِ الصَّغِيرَةِ ، وَمَا شَابَهُ ذَلِكَ . وَمِنْ الطَّرِيفِ أَنَّهُ أَقَامَ عَلَى سَطْحِ مَسْكَنِهِ تَلِسْكوبًا ضَخْمًا ؛ عَسَى أَنْ يَحْظِيَ مِنْ خِلَالِهِ بِرُؤْيَةٍ خَاطِفَةٍ لِلْمُنْدِيبِ الْهَارِبِ فِي أَرْضِ الْمُسْتَنْقَعَاتِ .

أَمَّا هَوْلْمز ، فَقَدْ كَانَ يَهْتَمُّ بِشَكْلِ خَاصٍّ أَنْ يَعْرِفَ سِيرَ الْأَحْدَاثِ فِي قَصْرِ بَاسْكَرْفِيل بِالذَّاتِ ، وَلَقَدْ أَخَذَتْ أَبْعَثُ إِلَيْهِ بِتَقَارِيرٍ مُفْصَلَةٍ عَنْ تَطَوُّرِ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ . وَلَقَدْ لَاحَظْتُ - لِدَهْشَتِي الْبَالِغَةِ - أَنَّ السَّيِّدَةَ بَارِيمور تُعَانِي قَلَقًا وَاسْتِثْنَاءً شَدِيدَيْنِ ، وَأَنَّ السَّيِّدَ بَارِيمور يَأْتِي بِتَصَرُّفَاتٍ غَرِيبَةٍ . وَفِي إِحْدَى اللَّيَالِي سَمِعْتُ وَقَعَ أَقْدَامٍ خَارِجَ بَابِ حُجْرَتِي ، فَفَتَحْتُهُ بِسُرْعَةٍ وَحَدَقْتُ فِي الدَّهْلِيزِ . كَانَ هُنَاكَ رَجُلٌ ، كَأَنَّهُ بَارِيمور يُنْسَلُ فِي الْمَمَرِّ ، حَامِلًا شَمْعَةً مُضَاءَةً فِي يَدِهِ . وَمَا إِنِ اخْتَفَى الرَّجُلُ فِي إِحْدَى الْغُرَفِ الْمُطْلَةِ عَلَى الْمُسْتَنْقَعَاتِ ، حَتَّى تَتَبَعْتُهُ سَائِرًا عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِ قَدَمَيْ ، وَنَظَرْتُ مِنْ خِلَالِ ثَقَبِ بَابِ الْغُرْفَةِ ... كَانَ الرَّجُلُ هُوَ بَارِيمور .. اقْتَرَبَ بَارِيمور بِشَمْعَتِهِ مِنَ النَّافِذَةِ ، ثُمَّ حَدَقَ فِي الْخَارِجِ . وَبَعْدَ بَرْهَةٍ قَصِيرَةٍ أَطْفَأَ الشَّمْعَةَ ، فَعُدْتُ مُسْرِعًا إِلَى حُجْرَتِي ، وَقَدْ تَمَلَّكَنِي الْعَجَبُ وَالْحَيْرَةُ مِنْ سُلُوكِهِ الْمُرِيبِ .



فِي الصَّبَاحِ التَّالِي ، نَقَلْتُ هَذِهِ الْأَخْبَارَ إِلَى سِير هَنري ، فَعَزَمْنَا عَلَى مُرَاقَبَةِ الْمَوْقِفِ مَعًا لِیَضَعَ لَيَالٍ مُتَتَالِيَةً . ثُمَّ أَفْصَحَ لِي الرَّجُلُ عَنْ رَغْبَتِهِ فِي الْخُرُوجِ مُنْفَرِدًا لِيَلْتَقِيَ بِالْآنِسَةِ سَتِيلْتون ، فَلَمْ أَشَأْ أَنْ أُمَانِعَ فِي تَحْقِيقِ هَذِهِ الرَّغْبَةِ الْجَامِحَةِ . غَيْرَ أَنِّي عَوَّلْتُ عَلَى مُرَاقَبَتِهِ عَنْ بُعْدٍ ، فَصَعِدْتُ لِذَلِكَ تَلًّا صَغِيرًا كَشَفَ لِي أَرْضَ الْمُسْتَنْقَعِ بَوْضُوحٍ .

وَرَأَيْتُ سِير هَنري يَلْتَقِي بِالشَّابَّةِ الْجَمِيلَةِ وَبِنَدْمِجٍ مَعَهَا فِي حَدِيثٍ عَاطِفِيٍّ صَمِيمٍ . بَيَّنَّ أَنَّ سَتِيلْتون سَرَّعَانَ مَا فَاجَأَهُمَا ، فَأَرْغَى وَأَزِيدَ ، وَتَعَالَتْ صَيِّحَاتُهُ وَهُوَ يَدُقُّ بِقَدَمِهِ الْأَرْضَ . وَمَا هِيَ إِلَّا لَحَظَاتٌ حَتَّى عَادَ بِأُخْتِهِ إِلَى الْمَنْزِلِ .

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي زَارَ سَتِيلْتون سِير هَنري فِي قَصْرِهِ ، وَاعْتَذَرَ عَمَّا حَدَثَ فِي الْيَوْمِ السَّابِقِ ، زَاعِمًا أَنَّهُ لَمْ يُطِيقْ فِكْرَةَ فِرَاقِ أُخْتِهِ بِسَبَبِ الزَّوْاجِ ، كَمَا رَجَاهُ أَنْ يُوجَّلَ طَلَبُ الْأَقْتِرَانِ بِهَا لِمُدَّةِ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ . وَهَكَذَا التَّامَ الصَّدْعُ مُوقَّتًا بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ .





وَلَمَّا أَوْغَلَ اللَّيْلُ، أَخَذْنَا نُرَاقِبُ بَارِيمُورَ. كَانَ الرَّجُلُ يُكَرِّرُ مَا حَدَّثَ مِنْ قَبْلُ فِي اللَّيْلَةِ السَّابِقَةِ. وَسَرَّعَانَ مَا أَقْتَحَمْنَا عَلَيْهِ الْحُجْرَةَ. سَأَلَهُ سِيرُ هَنْرِي «مَا الَّذِي تَفْعَلُهُ هُنَا؟» فَأَجَابَ، وَقَدْ رَوَعَتْهُ الْمُفَاجَأَةُ: «لَا شَيْءَ، يَا سَيِّدِي، إِنِّي أَتَفَقَّدُ النَّافِذَةَ.»

أَرَدَفَ سِيرُ هَنْرِي فِي اسْتِنْكَارٍ: «مَاذَا؟ تَفَقَّدُ نَافِذَةً بِذَاتِهَا فِي الدَّوْرِ الثَّانِي مِنَ الْقَصْرِ، وَفِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ صَبَاحًا، كُلُّ لَيْلَةٍ؟ هَذَا مَا لَا يُصَدِّقُهُ عَقْلٌ. أَخْبِرْنِي بِالْحَقِيقَةِ.»

«لَا أَسْتَطِيعُ الْبُوحَ بِالْحَقِيقَةِ يَا سَيِّدِي، فَإِنَّا لَا أَمْلِكُ إِفْشَاءَ هَذَا السِّرِّ.»

وَرَاوَدَنِي فِكْرَةٌ مُفَاجِئَةٌ، فَتَنَاوَلْتُ الشَّمْعَةَ وَقَرَّبْتُهَا مِنَ النَّافِذَةِ. وَفِي لَحْظَةٍ خَاطِفَةٍ ظَهَرَ مِنْ بَعِيدِ ضَوْءٍ ضَّئِيلٍ لِلْغَايَةِ فَصِخْتُ قَائِلًا: «هَذَا هُوَ مِفْتَاحُ السِّرِّ! إِنَّهَا إِشَارَةٌ ضَوْئِيَّةٌ لَا رَيْبَ. وَالْآنَ أَخْبِرْنِي، يَا بَارِيمُورَ: مَنْ هُوَ شَرِيكَكَ الَّذِي يَقِفُ هُنَاكَ؟»

وَبَيْنَمَا هُوَ يُغْمِغِمُ مُحَاوِلًا تَفْسِيرَ الْأَمْرِ، دَلَفَتِ السَّيِّدَةُ بَارِيمُورَ إِلَى الْحُجْرَةِ، وَقَدْ بَدَأَ عَلَيْهَا الْكَرْبُ الشَّدِيدُ. وَلَدَهَشْتِنَا الْبَالِغَةُ، أَخْبَرْتَنَا أَنَّ شَرِيكَهُ هُوَ سِيلْدَنُ: الْمَذْنِبُ الْفَارُّ مِنْ وَجْهِ الْعَدَالَةِ، وَأَنَّ «سِيلْدَنَ» هُوَ أَخُوها الْأَصْغَرُ الَّذِي تَعَاهَدْتُهُ مُنْذُ أَنْ كَانَ طِفْلًا، وَلَمْ يُطَاوِعْهَا قَلْبُهَا عَلَى تَسْلِيمِهِ لِرِجَالِ الْأَمْنِ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ مَبْلَغَ الشَّبَابِ، فَخَبَّأَتْهُ دَاخِلَ الْقَصْرِ إِلَى أَنْ قَدِمَ هَنْرِي إِلَيْهِ، فَاضْطُرَّ الرَّجُلُ الْمُنْكَودُ إِلَى أَنْ يَهَيِّمَ فَوْقَ أَرْضِ الْمُسْتَنْقَعَاتِ، مُلْتَمِسًا مَأْوَاهُ بَيْنَ أَطْلَالِ الْكُهُوفِ الْقَدِيمَةِ، وَمُعْتَمِدًا فِي قُوَّتِهِ عَلَى لَفَائِفِ الطَّعَامِ الَّتِي يُلْقَى بِهَا إِلَيْهِ بَارِيمُورَ وَزَوْجَتُهُ كُلَّ يَوْمَيْنِ. ثُمَّ أَضَافَتْ أَنَّ تِلْكَ الْإِشَارَاتِ الضَّوئِيَّةَ قَدْ اتَّفَقَ عَلَيْهَا لِيَعْرِفَا أَنَّ «سِيلْدَنَ» مَا زَالَ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ.

وَأَذِنَ سِيرُ هَنْرِي لِبَارِيمُورَ وَزَوْجَتِهِ بِالْإِنْصِرَافِ إِلَى حُجْرَتَيْهِمَا، وَأَخَذْنَا تَتَدَارَسُ مَعًا اتِّجَاهَ الضَّوئِ الَّذِي رَأَيْنَاهُ. قَالَ سِيرُ هَنْرِي: «إِنَّ الضَّوئَ يَبْعُدُ مِيلًا أَوْ مِيلَيْنِ فَقَطْ. إِنَّهُ يَنْبَعِثُ مِنْ عِنْدِ غُورٍ تَرْتُّ، عَلَى مَا أَعْتَقِدُ. يَجِبُ أَنْ نَقْبِضَ عَلَى الرَّجُلِ فِي الْحَالِ.»

وَأَخَذْتُ مُسَدَّسِي، كَمَا حَمَلَ سِيرُ هَنْرِي سَوْطًا مِنْ سِيَاطِ الصَّيْدِ. وَمَا إِنَّ سِرْنَا مَسَافَةً قَصِيرَةً حَتَّى تَرَامَى إِلَى آذَانِنَا صَوْتُ سَمِعْتُهُ مِنْ قَبْلُ: عَوِيلٌ أَشْبَهُ بِنَبَاحِ يُنْبِئُ بِقَدَرِ مَشْتُومٍ. وَتَرَدَّدَ الصَّوْتُ الْمَرَّةَ تَلَوَ الْمَرَّةَ، صَوْتُ وَحْشِيٍّ يَهْدَدُ بِشَرٍّ مُسْتَطِيرٍ.

قَالَ سِيرُ هَنْرِي فِي هَمْسٍ تَسْوَدُهُ الدَّهْشَةُ وَالتَّوَتُّرُ: «مَا هَذَا الشَّيْءُ؟»

أَجَبْتُهُ: «لَسْتُ أَدْرِي.» وَأَسْتَمَرَّ رَفِيقِي يَهْمِسُ بِصَوْتٍ مُهْتَزٍّ: «أَرْجُحُ، يَا وَاظُنُّنْ، أَنَّهُ عَوَاءُ كَلْبٍ. مَاذَا يَقُولُ سُكَّانُ الْمِنْطَقَةِ عَنْ هَذَا الصَّوْتِ؟»

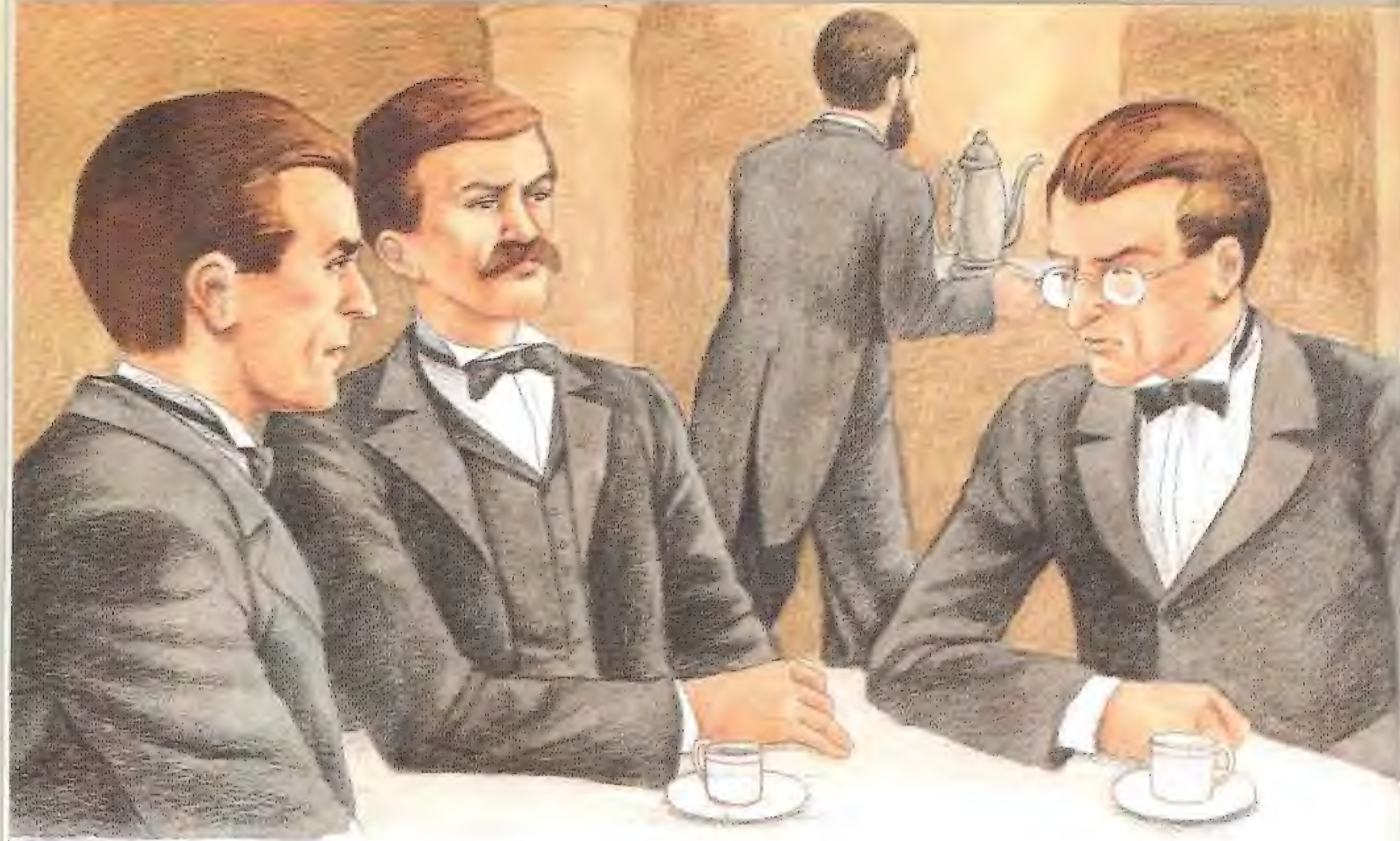
تَرَدَّدْتُ بُرْهَةً فِي الْإِجَابَةِ، ثُمَّ قُلْتُ: «يَقُولُونَ إِنَّهُ عَوَاءُ شَيْخٍ بِاسْمِ كَرَقِيلٍ.» وَصَمَتَ سِيرُ هَنْرِي لَحْظَةً، ثُمَّ قَالَ: «كَانَ الصَّوْتُ صَادِرًا مِنْ نَاحِيَةِ الْمُسْتَنْقَعِ جَرْمِينِ... إِنَّهُ صَوْتُ مُرْعِجٍ وَمَشْتُومٍ حَقًّا، مِنْ الْعَسِيرِ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَنْسَاهُ.»

وَسَأَلْتُهُ مَا إِذَا كَانَ مِنَ الْأَفْضَلِ أَنْ نَعُودَ، فَأَجَابَنِي سِيرُ هَنْرِي قَائِلًا: «كَلَّا، يَجِبُ أَلَّا نَدَعَ «سِيلْدَنَ» يُقِلَّتْ مِنْ أَيْدِينَا.»

وَتَقَدَّمْنَا، وَنَحْنُ نَتَعَثَّرُ عَلَى الطَّرِيقِ، إِلَى أَنْ أَتَيْنَا إِلَى مَوْضِعٍ وَجَدْنَا فِيهِ شَمْعَةً مُثَبَّتَةً فِي شَقٍّ بَيْنَ الصُّخُورِ... وَلَمْ نَلْبَثْ أَنْ فُوجِئْنَا بِوَجْهِ مُلْتَحٍ يَتَلَصَّصُ النَّظَرَ إِلَيْنَا مِنْ بَيْنِ الْأَجْمَةِ. وَمَا إِنَّ لَمَحْنَاهُ حَتَّى سَارَعَ بِالْإِخْتِفَاءِ تَحْتَ جَنَاحٍ مِنْ ظِلْمَةِ الْمُسْتَنْقَعِ... كَانَ مِنَ الْعَبَثِ أَنْ نَسْتَمِرَّ فِي تَعَقُّبِهِ؛ لِأَنَّ طَرِيدَنَا يَعْرِفُ طُرُقَ الْمُسْتَنْقَعِ جَيِّدًا، فَلَمْ نَلْبَثْ أَنْ تَوَقَّفْنَا عَنِ الْجَرِيِّ، وَجَلَسْنَا نَلْهَثُ عَلَى صَخْرَتَيْنِ مُتَجَاوِرَتَيْنِ.

وَعِنْدَمَا قَفَلْنَا عَائِدَيْنِ إِلَى الْمَتَرَلِ، رَأَيْتُ فَجْأَةً شَيْخَ رَجُلٍ طَوِيلٍ نَحِيلٍ، يَقِفُ عَلَى قِمَّةِ هَضْبَةٍ بِدِرَاعَيْنِ مَطْوِيَتَيْنِ. وَمَا إِنَّ تَوَقَّفْنَا عَنِ السَّيْرِ حَتَّى اخْتَفَى خَلْفَ التِّلِّ. لَمْ يَكُنْ - بِالْتَّكِيدِ - هُوَ الْمُجْرِمُ الْهَارِبُ، وَرَبِّمَا كَانَ حَارِسًا مِنْ حُرَّاسِ السَّجْنِ. وَأَسْتَأْنَفْنَا السَّيْرَ نَحْوَ الْقَصْرِ، وَقَدْ تَمَلَّكَتْنَا الْحَيْرَةُ مِنْ جَرَاءِ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ الْغَامِضَةِ.





وَعِنْدَمَا دَلَقْتُ إِلَى غُرْفَةِ الْمَكْتَبِ فِي الصَّبَاحِ التَّالِي، وَجَدْتُ بَارِيمُورَ يَشْكُو إِلَى سِير هَنْرِي: «لَقَدْ قُمْتُمَا اللَّيْلَةَ الْمَاضِيَةَ بِاسْتِغْلَالِ السَّرِّ، وَمُطَارَدَةِ أَخِيهَا سِيلْدَن.»

أَجَابَ سِير هَنْرِي بِحِدَّةٍ قَائِلًا: «وَلَكِنَّ الرَّجُلَ مُجْرِمٌ يَهْدُدُ الْمُجْتَمَعَ بِأَسْرِهِ.» قَالَ بَارِيمُورُ: «إِنَّهُ لَنْ يُؤْذِيَ أَحَدًا. كُلُّ مَا يُرِيدُهُ هُوَ أَنْ يُغَادِرَ الْبِلَادَ. وَإِذَا أَخْطَرْتُمَا رِجَالَ الْأَمْنِ، فَلَسَوْفَ نَقْعُ - أَنَا وَزَوْجَتِي - تَحْتَ طَائِلَةِ الْقَانُونِ لِإِيْوَانِنَا مُذْنِبًا.»

وَأَجَابَ سِير هَنْرِي: «لَنْ أَفْضِيَ لِلشَّرْطَةِ بِشَيْءٍ شَرِيطَةً أَنْ يُغَادِرَ سِيلْدَنَ الْبِلَادَ عَلَى الْفَوْرِ.» فَشَكَرَهُ بَارِيمُورُ بِحَرَارَةٍ، ثُمَّ فَاجَأَنَا بِقَوْلِهِ: «أَظُنُّ أَنَّ مِنْ وَاجِبِي أَنْ أُخْبِرَكَ بِشَيْءٍ أَكْشَفْتُهُ عَنْ وَفَاقِ سِير تشارلز.»

سَأَلَهُ سِير هَنْرِي فِي الْحَالِ: «هَلْ تَعْرِفُ، عَلَى وَجْهِ الدَّقَّةِ، كَيْفَ مَاتَ؟»

«كَلَّا، وَلَكِنِّي أَعْرِفُ لِمَاذَا تَوَقَّفَ عِنْدَ الْبَوَابَةِ: كَانَ يُرِيدُ لِقَاءَ امْرَأَةٍ.»

«امْرَأَةٍ؟! وَمَا اسْمُ هَذِهِ الْمَرْأَةِ؟»

أَجَابَ بَارِيمُورُ: «لَا أَدْرِي، غَيْرَ أَنَّ الْحَرْفَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ مِنْ اسْمِهَا هُمَا: ل. ل. لَقَدْ تَلَقَّى سِير تشارلز صَبِيحَةَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فِي حَيَاتِهِ خِطَابًا وَاحِدًا فَقَطْ. وَكَانَ مُعْتَادًا أَنْ يَتَلَقَّى أَكْثَرَ مِنْ خِطَابٍ كُلِّ يَوْمٍ. وَلاحِظْتُ أَنَّ خَاتَمَ الْبَرِيدِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْخِطَابَ مِنْ بَلَدِ «كُومْب تريسِي»، وَأَنَّ الْعُنْوَانَ مَكْتُوبٌ بِخَطِّ أَتْنَوِي. وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلٍ، كُنْتُ أَسَاعِدُ زَوْجَتِي فِي إِفْرَاقِ مِدْفَاقِ حُجْرَةِ الْمَكْتَبِ مِنَ الْأَوْرَاقِ الْمُهِمَّةِ الَّتِي أَلْقَيْتُ فِيهَا فَرَأَيْتُ بَقَايَا خِطَابٍ مُحْتَرِقٍ. كَانَ مُعْظَمُ الْخِطَابِ قَدْ تَحَوَّلَ إِلَى رَمَادٍ، وَلَكِنَّا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَقْرَأَ الْعِبَارَةَ التَّالِيَةَ عَلَى طَرَفِهِ: أَحْرِقْ هَذِهِ الرَّسَالَةَ بَعْدَ قِرَاءَتِهَا، وَقَابِلْنِي عِنْدَ الْبَوَابَةِ فِي السَّاعَةِ الْعَاشِرَةِ - ل. ل. ل.»

سَأَلَ سِير هَنْرِي بِإِهْتِمَامٍ: «أَلَا تَرَالُ تَحْتَفِظُ بِهِذِهِ الْوَرَقَةَ؟»

«كَلَّا، يَا سَيِّدِي، فَلَمَّا حَاوَلْنَا الَّتِيقَاطَهَا مِنَ الْمِدْفَاقِ تَحَوَّلَتْ إِلَى أَشْلَاءٍ.»

«وَلِمَاذَا لَمْ تُخْبِرْ أَحَدًا بِذَلِكَ مِنْ قَبْلُ؟»

«لِأَنَّ هَذَا الْخَبَرَ لَا يَخْدِمُ قَضِيَّةَ سِير تشارلز، فَضْلًا عَنْ أَنَّهُ قَدْ يُسِيءُ إِلَى سَمْعَتِهِ.»

وَفِي ذَلِكَ الْمَسَاءِ، قَدِمَ إِلَيْنَا الدَّكْتُورُ مَورْتِيمِرُ لِتَنَاوُلِ الْعِشَاءِ. وَأَجَابَ عَنْ تَسْأَلَاتِنَا، فَقَالَ إِنَّ السَّيِّدَةَ «ل. ل.» قَدْ تَكُونُ لُورَا لِيُونَزُ الَّتِي تَعِيشُ فِي «كُومْب تريسِي».

وَأَضَافَ الطَّيِّبُ قَائِلًا: «إِنَّهَا ابْنَةُ السَّيِّدِ فَرَانِكْلَانْدَ، وَقَدْ تَزَوَّجَتْ دُونَ مُوَافَقَةِ أَبِيهَا فَتَبَرَّأَ مِنْهَا. وَكَانَ زَوْجُهَا فَنَانًا يُدْعَى «لِيُونَزُ»، غَيْرَ أَنَّهُ هَجَرَهَا بَعْدَ سَنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ.»

وَبَادَرْتُهُ بِالسُّؤَالِ: «مِنْ أَيْنَ تُنْفِقُ عَلَى نَفْسِهَا إِذْنُ؟»

أَجَابَ: «مِنْ مَبْلَغٍ ضَخِيمٍ مِنَ النُّقُودِ تَتَقَاضَاهُ مِنْ وَالِدِهَا، وَقَدْ اسْتَطَعْتُ، بِالِاشْتِرَاكِ مَعَ السَّيِّدِ سَتِيلْتُونِ وَسِير تشارلز، تَرْوِيدَهَا بِرَأْسِمَالٍ كَافٍ لِإِقَامَةِ مَشْرُوعٍ صَغِيرٍ لِلْكِتَابَةِ عَلَى الْآلَةِ الْكَاتِبَةِ.»

كَانَتْ تِلْكَ الْمَعْلُومَاتُ مُشِيرَةً لِلْإِهْتِمَامِ، وَلَكِنِّي أَدْرْتُ الْحَدِيثَ وَجْهَةً أُخْرَى، إِذْ شَعَرْتُ بِأَنَّهُ مِنَ الْأَفْضَلِ أَلَّا أَفْضِيَ لِلدَّكْتُورِ مَورْتِيمِرِ بِشَيْءٍ عَنِ الْخِطَابِ الْمَحْرُوقِ. عَلَى أَنَّي عَوَّلْتُ عَلَى أَنَّ أُبْحَثُ بِنَفْسِي عَنِ السَّيِّدَةِ لُورَا لِيُونَزُ فِي «كُومْب تريسِي».



وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي شَدَدْتُ الرَّحَالَ إِلَى «كُومب تريسِي» وَأَنَا أَشْعُرُ بِالْقَلْقِ لِتَرْكِي سِير هَنري بِمُفَرِّدِهِ، وَلَكِنِّي كُنْتُ وَاثِقًا مِنْ أَنَّي سَوْفَ أَحْصُلُ مِنَ السَّيِّدَةِ عَلَى مَعْلُومَاتٍ أَكْثَرَ إِذَا مَا ذَهَبْتُ إِلَيْهَا مُنْفَرِدًا. وَسَرَّعَانَ مَا أَهْتَدَيْتُ لِمَنْزِلِهَا.

كَانَتْ سَمَاءٌ أُنِيقَةً، تَتَمَتَّعُ بِقَدَرٍ كَبِيرٍ مِنَ الثَّقَةِ بِالنَّفْسِ، مَشُوبًا بِشَيْءٍ مِنَ التَّعَالِي وَالْجَفَاءِ. وَقَدَّمْتُ نَفْسِي إِلَيْهَا عَلَى أَنَّي صَدِيقٌ لِأَيِّهَا. وَهُنَا أَنْبَرْتُ قَائِلَةً: «لَسْتُ مَدِينَةً لَوَالِدِي فِي شَيْءٍ، فَلَوْلَا سِير تشارلز بِاسْكِرْفِيل وَبَعْضُ أَصْدِقَائِهِ لَهَلَكْتُ جوعًا.» سَارَعْتُ بِالْقَوْلِ: «لَقَدْ جِئْتُكَ لِلْحَدِيثِ فِي شَأْنٍ يَخُصُّ سِير تشارلز بِالذَّاتِ... لَعَلَّكَ تَعْرِفِينَهُ جَيِّدًا.»

«أَجَلٌ.. كَانَ كَرِيمًا جِدًّا مَعِي.. وَلَكِنْ لِمَاذَا تُوجِّهُ إِلَيَّ مِثْلَ هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ؟» قُلْتُ، مُحَاوَلًا الْأَقْتِرَابَ مِنَ الْهَدَفِ: «ثُمَّ فَضِيحَةٌ أُرِيدُ تَجْنِيبَكَ إِيَّاهَا، وَذَلِكَ بِالْحَيْلُولَةِ دُونَ أَنْ يَسْتَجُوبَكَ رِجَالُ الشَّرْطَةِ... هَذَا كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ.» بَدَتْ عَلَى السَّيِّدَةِ أَمَارَاتُ الْأَنْزِعَاجِ، لَكِنِّي لَمْ تَلَبُّ أَنْ هَدَّأْتُ، ثُمَّ قَالَتْ: «كُنْتُ أَكْتُبُ لِسِير تشارلز بَيْنَ فِتْنَةٍ وَأُخْرَى، وَلَقَدْ أَتَى لِرِيزَارْتِي بِضْعَ مَرَّاتٍ.»



سَأَلْتُهَا فِي أَهْتِمَامٍ: «وَهَلْ كَتَبْتَ لَهُ، ذَاتَ يَوْمٍ، تَطْلِبِينَ لِقَاءَهُ؟»

هَبَّتْ صَائِحَةً فِي غَضَبٍ: «لَمْ يَحْدِثْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ.»

«بَلْ حَدَّثَ بِالْفِعْلِ. لَقَدْ كَتَبْتَ لَهُ خِطَابًا تَقُولِينَ فِيهِ: «أَحْرِقْ هَذِهِ الرِّسَالَةَ بَعْدَ قِرَاءَتِهَا، وَقَابِلْنِي عِنْدَ الْبَوَابَةِ فِي السَّاعَةِ الْعَاشِرَةِ.»»

قَالَتْ لَاهِتَةً: «أَلَمْ يُحْرِقْ هَذَا الْخِطَابَ؟»

«أَحْرِقَهُ فِعْلًا، وَلَكِنْ بَقِيَ جُزْءٌ مِنْهُ... أَتَعْرِفِينَ بِكِتَابَةِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ؟»

«لَقَدْ كُنْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَى مُسَاعَدَتِهِ مَرَّةً أُخْرَى، وَكَانَ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ أَلْقَاهُ.»

«وَلَكِنْ لِمَاذَا تَخَيَّرْتَ هَذِهِ السَّاعَةَ الْمُتَأَخِّرَةَ وَهَذَا الْمَكَانَ الْغَرِيبَ لِلْقِيَاءِ؟»

أَجَابَتْ: «لِأَنَّي كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ لِلتَّوَّ أَنَّهُ سَوْفَ يَذْهَبُ إِلَى لَنْدُنَ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، وَيَظَلُّ هُنَاكَ بِضْعَةَ شُهُورٍ. لَمْ يَكُنْ يُمَكِّنِي، بِالطَّبَعِ، أَنْ أَذْهَبَ إِلَى مَنْزِلِهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الْمُتَأَخِّرَةِ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ عَزَبًا، وَكَانَ هَذَا السُّلُوكُ مِنْ جَانِبِي كَفِيلًا بِإِثَارَةِ الْأَقَاوِيلِ.»

«لَقَدْ كُنْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَى مُسَاعَدَتِهِ مَرَّةً أُخْرَى، وَكَانَ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ أَلْقَاهُ.»

«وَلَكِنْ لِمَاذَا تَخَيَّرْتَ هَذِهِ السَّاعَةَ الْمُتَأَخِّرَةَ وَهَذَا الْمَكَانَ الْغَرِيبَ لِلْقِيَاءِ؟»

أَجَابَتْ: «لِأَنَّي كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ لِلتَّوَّ أَنَّهُ سَوْفَ يَذْهَبُ إِلَى لَنْدُنَ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، وَيَظَلُّ هُنَاكَ بِضْعَةَ شُهُورٍ. لَمْ يَكُنْ يُمَكِّنِي، بِالطَّبَعِ، أَنْ أَذْهَبَ إِلَى مَنْزِلِهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الْمُتَأَخِّرَةِ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ عَزَبًا، وَكَانَ هَذَا السُّلُوكُ مِنْ جَانِبِي كَفِيلًا بِإِثَارَةِ الْأَقَاوِيلِ.»

«لَقَدْ كُنْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَى مُسَاعَدَتِهِ مَرَّةً أُخْرَى، وَكَانَ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ أَلْقَاهُ.»

«وَلَكِنْ لِمَاذَا تَخَيَّرْتَ هَذِهِ السَّاعَةَ الْمُتَأَخِّرَةَ وَهَذَا الْمَكَانَ الْغَرِيبَ لِلْقِيَاءِ؟»

أَجَابَتْ: «لِأَنَّي كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ لِلتَّوَّ أَنَّهُ سَوْفَ يَذْهَبُ إِلَى لَنْدُنَ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، وَيَظَلُّ هُنَاكَ بِضْعَةَ شُهُورٍ. لَمْ يَكُنْ يُمَكِّنِي، بِالطَّبَعِ، أَنْ أَذْهَبَ إِلَى مَنْزِلِهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الْمُتَأَخِّرَةِ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ عَزَبًا، وَكَانَ هَذَا السُّلُوكُ مِنْ جَانِبِي كَفِيلًا بِإِثَارَةِ الْأَقَاوِيلِ.»

أَجَابَتْ: «لِأَنَّي كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ لِلتَّوَّ أَنَّهُ سَوْفَ يَذْهَبُ إِلَى لَنْدُنَ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، وَيَظَلُّ هُنَاكَ بِضْعَةَ شُهُورٍ. لَمْ يَكُنْ يُمَكِّنِي، بِالطَّبَعِ، أَنْ أَذْهَبَ إِلَى مَنْزِلِهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الْمُتَأَخِّرَةِ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ عَزَبًا، وَكَانَ هَذَا السُّلُوكُ مِنْ جَانِبِي كَفِيلًا بِإِثَارَةِ الْأَقَاوِيلِ.»

أَجَابَتْ: «لِأَنَّي كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ لِلتَّوَّ أَنَّهُ سَوْفَ يَذْهَبُ إِلَى لَنْدُنَ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، وَيَظَلُّ هُنَاكَ بِضْعَةَ شُهُورٍ. لَمْ يَكُنْ يُمَكِّنِي، بِالطَّبَعِ، أَنْ أَذْهَبَ إِلَى مَنْزِلِهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الْمُتَأَخِّرَةِ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ عَزَبًا، وَكَانَ هَذَا السُّلُوكُ مِنْ جَانِبِي كَفِيلًا بِإِثَارَةِ الْأَقَاوِيلِ.»

أَجَابَتْ: «لِأَنَّي كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ لِلتَّوَّ أَنَّهُ سَوْفَ يَذْهَبُ إِلَى لَنْدُنَ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، وَيَظَلُّ هُنَاكَ بِضْعَةَ شُهُورٍ. لَمْ يَكُنْ يُمَكِّنِي، بِالطَّبَعِ، أَنْ أَذْهَبَ إِلَى مَنْزِلِهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الْمُتَأَخِّرَةِ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ عَزَبًا، وَكَانَ هَذَا السُّلُوكُ مِنْ جَانِبِي كَفِيلًا بِإِثَارَةِ الْأَقَاوِيلِ.»

أَجَابَتْ: «لِأَنَّي كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ لِلتَّوَّ أَنَّهُ سَوْفَ يَذْهَبُ إِلَى لَنْدُنَ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، وَيَظَلُّ هُنَاكَ بِضْعَةَ شُهُورٍ. لَمْ يَكُنْ يُمَكِّنِي، بِالطَّبَعِ، أَنْ أَذْهَبَ إِلَى مَنْزِلِهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الْمُتَأَخِّرَةِ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ عَزَبًا، وَكَانَ هَذَا السُّلُوكُ مِنْ جَانِبِي كَفِيلًا بِإِثَارَةِ الْأَقَاوِيلِ.»

أَجَابَتْ: «لِأَنَّي كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ لِلتَّوَّ أَنَّهُ سَوْفَ يَذْهَبُ إِلَى لَنْدُنَ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، وَيَظَلُّ هُنَاكَ بِضْعَةَ شُهُورٍ. لَمْ يَكُنْ يُمَكِّنِي، بِالطَّبَعِ، أَنْ أَذْهَبَ إِلَى مَنْزِلِهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الْمُتَأَخِّرَةِ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ عَزَبًا، وَكَانَ هَذَا السُّلُوكُ مِنْ جَانِبِي كَفِيلًا بِإِثَارَةِ الْأَقَاوِيلِ.»

أَجَابَتْ: «لِأَنَّي كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ لِلتَّوَّ أَنَّهُ سَوْفَ يَذْهَبُ إِلَى لَنْدُنَ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، وَيَظَلُّ هُنَاكَ بِضْعَةَ شُهُورٍ. لَمْ يَكُنْ يُمَكِّنِي، بِالطَّبَعِ، أَنْ أَذْهَبَ إِلَى مَنْزِلِهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الْمُتَأَخِّرَةِ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ عَزَبًا، وَكَانَ هَذَا السُّلُوكُ مِنْ جَانِبِي كَفِيلًا بِإِثَارَةِ الْأَقَاوِيلِ.»

أَجَابَتْ: «لِأَنَّي كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ لِلتَّوَّ أَنَّهُ سَوْفَ يَذْهَبُ إِلَى لَنْدُنَ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، وَيَظَلُّ هُنَاكَ بِضْعَةَ شُهُورٍ. لَمْ يَكُنْ يُمَكِّنِي، بِالطَّبَعِ، أَنْ أَذْهَبَ إِلَى مَنْزِلِهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الْمُتَأَخِّرَةِ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ عَزَبًا، وَكَانَ هَذَا السُّلُوكُ مِنْ جَانِبِي كَفِيلًا بِإِثَارَةِ الْأَقَاوِيلِ.»

أَجَابَتْ: «لِأَنَّي كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ لِلتَّوَّ أَنَّهُ سَوْفَ يَذْهَبُ إِلَى لَنْدُنَ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، وَيَظَلُّ هُنَاكَ بِضْعَةَ شُهُورٍ. لَمْ يَكُنْ يُمَكِّنِي، بِالطَّبَعِ، أَنْ أَذْهَبَ إِلَى مَنْزِلِهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الْمُتَأَخِّرَةِ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ عَزَبًا، وَكَانَ هَذَا السُّلُوكُ مِنْ جَانِبِي كَفِيلًا بِإِثَارَةِ الْأَقَاوِيلِ.»

أَجَابَتْ: «لِأَنَّي كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ لِلتَّوَّ أَنَّهُ سَوْفَ يَذْهَبُ إِلَى لَنْدُنَ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، وَيَظَلُّ هُنَاكَ بِضْعَةَ شُهُورٍ. لَمْ يَكُنْ يُمَكِّنِي، بِالطَّبَعِ، أَنْ أَذْهَبَ إِلَى مَنْزِلِهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الْمُتَأَخِّرَةِ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ عَزَبًا، وَكَانَ هَذَا السُّلُوكُ مِنْ جَانِبِي كَفِيلًا بِإِثَارَةِ الْأَقَاوِيلِ.»





صَافِحِي الرَّجُلَ قَائِلًا : « طَابَ مَسَاوُكُكَ ، يَا دَكْتُورَ وَاطُسُن . هَلَّا عُدْتَ مَعِيَ إِلَى الْبَيْتِ لِنَتَاوُلِ قَدَحَ مِنَ الشَّرَابِ ؟ » فَقَبِلْتُ دَعْوَتَهُ فِي الْحَالِ ، مُؤَمِّلًا أَنْ أَلْتَقِطَ مِنْهُ بَعْضَ الْمَعْلُومَاتِ الْمُقَيَّدَةِ . وَكَانَ السَّيِّدُ فَرَانِكْلَانْدُ شَدِيدَ الْإِتِهَاجِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لِأَنَّ الْمَحْكَمَةَ قَدْ قَضَتْ لِصَالِحِهِ فِي إِحْدَى الْقَضَايَا بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ رِجَالَ الشَّرْطَةِ - الَّذِينَ يُكِنُّ لَهُمُ الرَّجُلُ كُلَّ أَرْدِرَاءٍ - قَدْ وَضَعُوا كَثِيرًا مِنَ الْعِرَاقِيلِ فِي طَرِيقِهِ . وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَالَ لِي :

« لَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْحَمَقَى كَانُوا أَكْثَرَ تَعَاوُنًا مَعِيَ ، لَسَاعَدْتُهُمْ فِي الْقَبْضِ عَلَى سِيلْدَن ، فَأَنَا أَعْرِفُ أَيْنَ يَخْتَبِئُ ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ الْفَتَى الَّذِي يَجْلِبُ لَهُ الطَّعَامُ . »

كَانَ هَذَا هُوَ مَا أَرَدْتُ أَنْ أَعْرِفَهُ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي ظَنَنَهُ السَّيِّدُ فَرَانِكْلَانْدُ « سِيلْدَن » لَمْ يَكُنْ - فِي وَاقِعِ الْأَمْرِ - سِوَى ذَلِكَ الشَّخْصِ الْغَرِيبِ الطَّوِيلِ الَّذِي رَأَيْتُ ظِلَّهُ مُتَرَامِيًا فَوْقَ الْمُسْتَنْقَعِ . وَلَمْ يَلْبَثْ مُضِيفِي أَنْ أَصْطَحَبَنِي إِلَى سَطْحِ الْمَتَرِلِ لِأَخْطِيَ بِرُؤْيَةِ أَفْضَلِ الْمُسْتَنْقَعِ مِنْ خِلَالِ تَلِسْكُوبِهِ ، مُشِيرًا إِلَى الْفَتَى الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ تَلًّا قَرِيبًا مِنْ « الْهَضْبَةِ السَّوْدَاءِ » . وَقَدْ شَاهَدْتُهُ وَهُوَ يَصِلُ إِلَى أَعْلَى التَّلِّ ، ثُمَّ يَخْتَفِي .

شَعَرْتُ حِينَئِذٍ أَنَّ فِي حَوْزَتِي بَعْضَ الْأَدِلَّةِ الرَّاسِخَةِ الَّتِي تُعِينُنِي عَلَى اسْتِثْنَائِ الْعَمَلِ ، وَرَغِبْتُ فِي مُوَاصَلَةِ الْبَحْثِ وَالتَّحَرِّيِ فِي تِلْكَ الْمِنْطَقَةِ الَّتِي تُسَمَّى بِالْهَضْبَةِ السَّوْدَاءِ . وَعِنْدَمَا أَشْرَفْتُ عَلَى قِمَّةِ التَّلِّ كَانَتِ الشَّمْسُ قَدْ مَالَتْ إِلَى الْغُرُوبِ ، غَيْرَ أَنَّنِي اسْتَطَعْتُ أَنْ أَرَى دَائِرَةً مِنَ الْكُھُوفِ الْحَجَرِيَّةِ الْقَدِيمَةِ ، وَكَانَ أَحَدُهَا لَا يَزَالُ مُحْتَفِظًا بِجُزْءٍ مِنْ سَقْفِهِ . وَرَاوَدْتَنِي حِينَئِذٍ فِكْرَةٌ أَنْ يَكُونَ مَخْبَأُ الرَّجُلِ الْغَرِيبِ هُنَاكَ .

وَهَبْتُ إِلَى الْبَابِ شَاهِرًا مُسَدَّسِي ، فَأَلْفَيْتُ الْكُوخَ خَاوِيًا إِلَّا مِنْ بَضْعَةٍ أَشْيَاءَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ سَاكِنًا قَدْ غَادَرَهُ مُنْذُ وَقْتٍ قَرِيبٍ : بَضْعُ بَطَانِيَّاتٍ ، رَمَادُ نِيرَانٍ خَائِيَةٍ ، دَلُومَاءٌ ، عُلْبُ طَعَامٍ فَارِغَةٌ . وَرَأَيْتُ كَيْسًا يَحْوِي خُبْرًا وَعُلْبَةً سُجُقٍ وَعُلْبَتِي خَوْخٍ ، وَإِلَى جَانِبِهِ رِسَالَةٌ تَحْمِلُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ : « لَقَدْ ذَهَبَ د . وَاطُسُنُ إِلَى كُومْبِ تَرِيسِي » .

كَانَ مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ الرَّجُلَ سَوْفَ يَعُودُ ، وَلِهَذَا وَقَفْتُ أَنْتَظِرُهُ ، وَيَدِي عَلَى مُسَدَّسِي . وَمَا هِيَ إِلَّا لَحْظَاتٌ حَتَّى سَمِعْتُ وَقَعَ خُطُواتٍ تَقْتَرِبُ ، ثُمَّ تَوَقَّفَتْ خَارِجَ الْبَابِ . وَنَادَانِي صَوْتُ سَمِعْتُهُ مِرَارًا مِنْ قَبْلُ : « إِنَّهُ مَسَاءٌ رَائِعٌ يَا وَاطُسُن . »

فَعَرَفْتُ الصَّوْتَ فِي الْحَالِ ، وَقَفَزْتُ صَائِحًا فِي فَرَحٍ : « هَوْلْمَرْ ! أَنْتَ هَوْلْمَرْ ! » وَمَشَيْتُ بِطُءٍ إِلَى خَارِجِ الْكُوخِ ، وَقَدْ تَمَلَّكَنِي دَهْشَةٌ عَارِمَةٌ . وَهُنَاكَ رَأَيْتُ صَدِيقِي الْعَزِيزَ يَرْتَدِي حُلَّةً مِنَ الصُّوفِ الْخَشِنِ وَقُبْعَةً مِنَ الْقُمَاشِ وَقَدْ اكْتَسَبَ لَوْنًا بَرُونِيًّا بِفِعْلِ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ .

صِحْتُ فِي عَجَبٍ : « يَا لَلَسَّمَاءِ ! لَمْ يُدْهِشْنِي شَيْءٌ كَهَذَا مِنْ قَبْلُ ! » رَدَّ هَوْلْمَرْ قَائِلًا : « وَلَا أَنَا . لَمْ أَكُنْ أَتَوَقَّعُ وُجُودَكَ هُنَا . »

سَأَلْتُهُ : « هَلْ لَاحَظْتَ آثَارَ قَدَمِي ، فَتَتَبَعْتَهَا ؟ » فَأَجَابَ : « كَلَّا لَقَدْ لَمَحْتُ عَقِبَ إِحْدَى سَجَائِرِكَ عَلَى الطَّرِيقِ ، وَكَانَ يَحْمِلُ عَلَامَةَ الْمُتَجَرِّ الَّذِي تَشْتَرِي مِنْهُ لِفَائِفَكَ . إِذَنْ فَقَدْ كُنْتَ تَتَعَقَّبُنِي هُنَا ظَانًّا أَنَّنِي الْمُجْرِمُ ؟ »

« لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ شَخْصِيَّةَ مَنْ أَتَعَقَّبُهُ بِالتَّحْدِيدِ ، وَلَكِنِّي كُنْتُ مُصَمِّمًا عَلَى اكْتِشَافِهَا . وَعَنْ طَرِيقِ مُرَاقَبَةِ تَحَرُّكَاتِ الْفَتَى ، اسْتَطَعْتُ أَنْ أَكْشِفَ هَذَا الْمَخْبَأَ . »



أَرَدَفَ هَوْلْمَز ضاحِكًا : «الْغُلَامُ ... آه ، نَعَمْ ... تَقْصِدُ كَارْتَرَايت .» ثُمَّ دَلَفَ إِلَى الْكُوخِ ، وَقَرَأَ الرِّسَالَةَ الْمَوْجِزَةَ ، وَقَالَ : «إِذْنُ فَقَدْ ذَهَبْتَ إِلَى «كُومْب تْرِيسِي» لِرُؤْيَةِ السَّيِّدَةِ لُورَا لِيُونَز الَّتِي أَعْرِفُ الْكَثِيرَ عَنْهَا . مَاذَا اسْتَخْلَصْتَ مِنْهَا ؟»

فَأَعَدْتُ عَلَى مَسَمَعِهِ الْحِوَارَ الَّذِي دَارَ بَيْنَنَا . فَقَالَ : «إِنَّ مَا دَارَ بَيْنَكُمَا هُوَ مِنَ الْأَهَمِّيَّةِ بِمَكَانٍ . أَلَا تَدْرِي أَنَّ هُنَاكَ عِلَاقَةً حَسِيمَةً تَرْبِطُ بَيْنَ هَذِهِ السَّيِّدَةِ وَالسَّيِّدِ سَتِيلْتُون ؟ وَهَذَا يُعْطِينَا سِلَاحًا يُمَكِّنُ أَنْ نَسْتَخْدِمَهُ لِإِثَارَةِ زَوْجَةِ سَتِيلْتُون ضِدَّهُ .»

صَحْتُ فِي دَهْشَةٍ : «تَقُولُ زَوْجَةُ سَتِيلْتُون ؟»

«أَجَلْ ، يَا وَاطْسُنْ ، فَإِنَّ السَّيِّدَةَ الَّتِي يَدَّعِي أَنَّهَا أُخْتُهُ ، إِنَّمَا هِيَ زَوْجَتُهُ فِي الْوَاقِعِ .»  
«عَجَبًا ! أَوَاقُ أَنْتَ مِمَّا تَقُولُ ، يَا هَوْلْمَز ؟ إِنَّ سِيرَ هَنْرِي يُحِبُّهَا !»

أَرَدَفَ هَوْلْمَز : «هَذَا الْحُبُّ لَنْ يُؤْذِيَ أَحَدًا سِوَى سِيرِ هَنْرِي نَفْسِهِ . إِنَّ سَتِيلْتُون يَسْتَخْدِمُ زَوْجَتَهُ كَطُعْمٍ وَإِغْرَاءٍ . وَلَكِنَّهُ يَعْرِفُ جَيِّدًا كَيْفَ يَحْمِيهَا إِذَا مَا اسْتَدْعَى الْأَمْرُ .»  
«وَكَيْفَ تَأَكَّدْتَ أَنَّهَا زَوْجَتُهُ ؟»

«لِأَنَّهُ صَرَخَ لَكَ ذَاتَ يَوْمٍ أَنَّهُ كَانَ يَمْتَلِكُ مَدْرَسَةً فِي يوركشاير وَأَضْطُرَّ إِلَى إِغْلَاقِهَا . وَلَمْ أَجِدْ صُعُوبَةً فِي مَعْرِفَةِ مَكَانِ تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ ، وَفِي الْحُصُولِ عَلَى أَوْصَافٍ وَصُورٍ لِصَاحِبِهَا وَزَوْجَتِهِ . وَلَقَدْ تَطَابَقَتْ هَذِهِ الصُّورُ وَالْأَوْصَافُ مَعَ شَخْصِي السَّيِّدِ سَتِيلْتُون وَأُخْتِهِ الْمَزْعُومَةِ ... كَانَا يَعِيشَانِ حِينئِذٍ تَحْتَ اسْمِ : السَّيِّدِ فَاَنْدِيلِرِ وَزَوْجَتِهِ .»

فَسَأَلْتُهُ : «وَمَا هُوَ الدَّوْرُ الَّذِي تُرِيدُ لِلْسَّيِّدَةِ لُورَا لِيُونَز أَنْ تَلْعَبَهُ ؟»

أَجَابَ هَوْلْمَز : «أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهَا تَسْعَى لِلْحُصُولِ عَلَى الطَّلَاقِ مِنْ زَوْجِهَا كَيْ تَتِمَكَّنَ مِنَ الزَّوْاجِ بِالسَّيِّدِ سَتِيلْتُون الَّذِي تَظُنُّهُ عَزَبًا . وَلَكِنْ حِينَ تَكْتَشِفُ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَخْدَعُهَا ، فَسَوْفَ تَقَعُ فَرِيسَةً لِحَالَةِ نَفْسِيَّةٍ سَيِّئَةٍ قَدْ تَدْفَعُهَا لِكَشْفِ بَعْضِ الْأَسْرَارِ الَّتِي تَكْتَفِي قَضِيَّتَنَا . وَإِنِّي لِأَجْزِمُ أَنَّ السَّيِّدَةَ سَتِيلْتُون سَوْفَ تَفْعَلُ بِالْمِثْلِ .»

أَخَذْتُ كُلَّ شُكُوكِنَا وَادِلَّتِنَا تَجَمُّعَ حَوْلَ سَتِيلْتُون .



وَسَمِعْنَا ، عَلَى حِينِ غُرَّةٍ ، صُرَاخًا مُرِيعًا ، فَقَدْ انْطَلَقَتْ مِنْ جَوْفِ الْمُسْتَنْقَعِ السَّاكِنِ الصَّامِتِ صَيِّحَةٌ طَوِيلَةٌ مِنَ الرُّعْبِ وَالْأَلَمِ الْمُبْرِحِ جَمَدَتْ الدَّمُ فِي عُرُوقِي .

قُلْتُ فِي أَنْفَاسٍ مُتَقَطِّعَةٍ : «أُوهِ ، يَا إِلَهِي ! مَا هَذَا ؟ وَمَاذَا يَعْْنِي ؟»

أَجَابَ هَوْلْمَز هَامِسًا : «أَصُمْتُ .. أَصْغِرْ جَيِّدًا ... مِنْ أَيْنَ يَأْتِي هَذَا الصَّوْتُ ؟»

قُلْتُ مُشِيرًا بِيَدِي فِي الظَّلَامِ : «مِنْ هَذَا الْإِتِّجَاهِ عَلَى مَا أَظُنُّ .»

وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ تَرَامَى إِلَى آذَانِنَا صُرَاخٌ آخَرٌ يَنْمُ عَنْ أَلَمٍ وَكَرْبٍ شَدِيدَيْنِ ، غَيْرَ أَنَّهُ اقْتَرَبَ مِنَّا عَنْ ذِي قَبْلٍ ، وَتَمَيَّزَ بِإِقَاعٍ رَتِيبٍ مُخِيفٍ . وَمَا هِيَ إِلَّا لَحْظَةٌ خَاطِفَةٌ حَتَّى صَاحَ هَوْلْمَز قَائِلًا : «الشَّيْخُ ! أَسْرِعْ ، يَا وَاطْسُنْ ، وَإِلَّا أَفَلَتْنَا مِنَ الْفُرْصَةِ !»

وَأَخَذْنَا نَعْدُو إِلَى الْأَمَامِ ، فَسَمِعْنَا صَرَخَةً آخِرَةً يَائِسَةً ، ثُمَّ صَوْتُ ارْتِطَامٍ ثَقِيلٍ بِالْأَرْضِ .





وَوَاصِلْنَا الْعَدُوَّ فِي الظَّلَامِ الدَّامِسِ صَوْبَ تِلْكَ الصَّرْحَةِ، مُرْتَظِمِينَ فِي طَرِيقِنَا  
بِالصُّخُورِ الصَّمَاءِ وَشُجَيْرَاتِ الْجَوْلَقِ. وَلَمْ نَلْبَثْ أَنْ فُوجِنَا بِجُثَّةِ رَجُلٍ تَدَلَّى وَجْهَهُ  
تَحْتَ جِسْمِهِ. كَانَ قَدْ مَاتَ - بِالْفِعْلِ - وَكَانَتِ الدَّمَاءُ تَتَدَفَّقُ غَزِيرَةً مِنْ جُمُجُمَتِهِ  
الْمُهَشَّمَةِ. وَأَشْعَلْنَا عَوْدَ ثِقَابٍ لِمَعْرِفَةِ صَاحِبِ الْجُثَّةِ، فَرَأَيْنَا أَنَّهَا جُثَّةُ سِيرِ هَنْرِي  
بِاسْكِرْفِيلِ؛ كَانَ يَرْتَدِي نَفْسَ السُّتْرَةِ الَّتِي لَبَسَهَا حِينَ قَابَلْنَاهُ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى فِي شَارِعِ بِيكِر.  
وَأَصَابَنِي رُعبٌ وَذُهولٌ، وَشَعَرْتُ بِغُصَّةٍ فِي حَلْقِي. لِمَاذَا تَرَكَتُهُ وَحِيدًا لِيَلْقَى قَدْرَهُ  
الْمَشُومَ؟ وَمَا لَبِثَ هَوْلَمَزُ أَنْ أَخْرَجَنِي مِنْ حُزْنِي بِقَوْلِهِ: «عَلَى أَنَّنَا مَا زِلْنَا نَفْتَقِرُ إِلَى الدَّلِيلِ  
الْقَاطِعِ عَلَى أَنَّ سَتِيلْتُونَ وَرَاءَ كُلِّ مَا حَدَثَ؛ فَكُلُّ مَا نَعْرِفُهُ ظَاهِرِيًّا، حَتَّى الْآنَ، هُوَ أَنَّ  
سِيرَ تشارلزَ قَدْ مَاتَ دُغْرًا مِنَ الشَّبَحِ، وَأَنَّ سِيرَ هَنْرِي قَدْ لَقِيَ مَصْرَعَهُ مُنْذُ لَحْظَاتٍ إِثْرَ  
سَقْطَةِ عَنِيفَةٍ عَلَى رَأْسِهِ، بَيْنَمَا كَانَ يَقْرُ مُرْتَاعًا مِنْ نَفْسِ الشَّبَحِ.

وَشَرَعْنَا فِي نَقْلِ الْجُثَّةِ إِلَى سَطْحِ الْكُوخِ. وَمَا إِنِ انْحَنَى هَوْلَمَزُ لِيَحْمِلَهَا، حَتَّى  
صَاحَ: «انْظُرْ، هَذَا الرَّجُلُ مُلْتَحٍ. إِنَّهُ لَيْسَ سِيرِ هَنْرِي. إِنَّهُ الْمُذْنِبُ الْهَارِبُ: سِيلْدَنُ.»  
أَذْرَكْتُ حِينئِذٍ مَا حَدَثَ: لَقَدْ اشْتَرَى سِيرِ هَنْرِي لِنَفْسِهِ مَلَابِسَ جَدِيدَةً، وَأَعْطَى  
الْقَدِيمَةَ لِياريمور، الَّذِي قَدَّمَهَا بِدَوْرِهِ لِسِيلْدَنَ لِتُعِينَهُ عَلَى التَّخْفِي وَالْفِرَارِ.  
أَرَدَفَ هَوْلَمَزُ: «أَجَلْ، لَقَدْ تَسَبَّبَتِ الْمَلَابِسُ فِي مَوْتِ الرَّجُلِ: فَقَدْ تَتَبَعَ الشَّبَحُ  
رَائِحَةَ حِذَاءِ سِيرِ هَنْرِي. الْآنَ عَرَفْتُ لِمَاذَا سُرِقَ الْحِذَاءُ.»

وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ بَعَيْنَاهَا، رَأَيْنَا شَبَحَ رَجُلٍ يَقْتَرِبُ فِي الظَّلَامِ، بِسِجَارٍ مُشْتَعِلٍ فِي  
يَدِهِ... وَوَجَدْنَا أَنَّ الرَّجُلَ هُوَ سَتِيلْتُونَ، الَّذِي لَمْ يَلْبَثْ أَنْ صَاحَ قَائِلًا:

«أَهَذَا أَنْتَ، يَا دَكْتُورَ واطْسُنْ؟ مَاذَا حَدَثَ؟ لَيْسَ سِيرِ هَنْرِي بِالتَّكِيدِ.»

وَأُنْحَنَى لِتَفْحَصَ الْجُثَّةَ، فَدَنَّتْ عَنْهُ شَهَقَةٌ فُجَائِيَّةٌ. وَتَلَعْنَمَ وَهُوَ يَسْأَلُنِي مُتَجَاهِلًا  
وُجُودَ هَوْلَمَزَ وَرَأْيِي: «مَنْ صَاحِبُ هَذِهِ الْجُثَّةِ؟»

أَجَبْتُ فِي هُدُوءٍ: «إِنَّهُ «سِيلْدَنُ» - السَّجِينُ الْهَارِبُ مِنْ بَرْنِسْتُونِ.»

وَبَدَأَ أَنَّ سَتِيلْتُونَ يَبْذُلُ جُهْدًا فَائِقًا لِلتَّغْلِبِ عَلَى دَهْشَتِهِ وَخَبِيَةِ أَمَلِهِ. وَمَا لَبِثَ أَنْ قَالَ:

«مَاذَا حَدَثَ لَهُ؟»

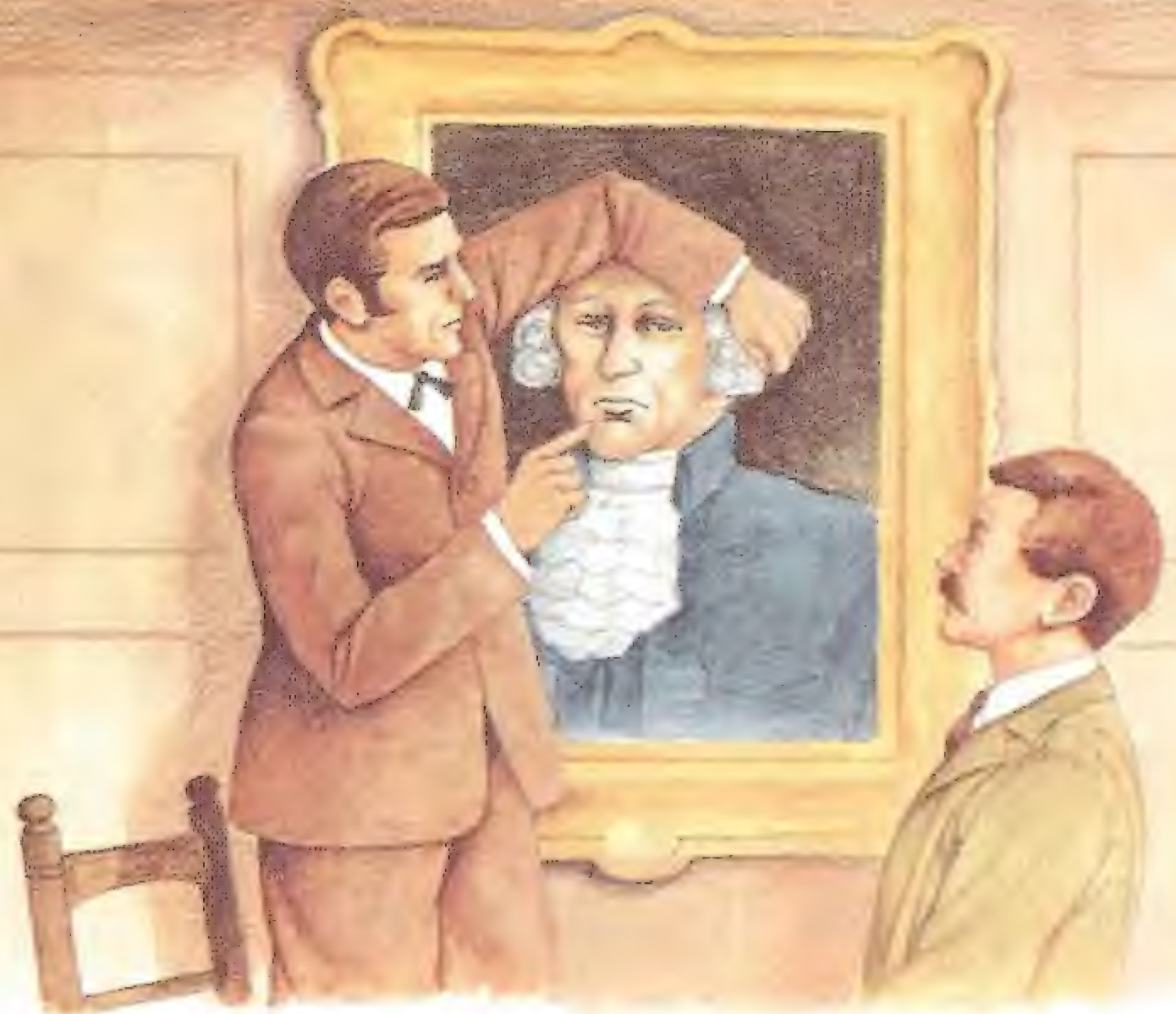
«يَبْدُو أَنَّهُ سَقَطَ عَلَى هَذِهِ الصُّخُورِ فَكُسِرَ عُنُقُهُ... لَقَدْ سَمِعْنَا صَرَخَاتٍ غَرِيبَةً فَأَتَيْنَا  
لِاسْتِيَانِ الْأَمْرِ.»

قَالَ سَتِيلْتُونَ: «لَقَدْ سَمِعْتُ هَذِهِ الصَرَخَاتِ كَذَلِكَ، فَقَدِمْتُ مِنْ مَتْرَلِي... كُنْتُ  
قَلِقًا عَلَى سِيرِ هَنْرِي.» فَسَأَلْتُهُ: «وَلِمَاذَا سِيرِ هَنْرِي بِالذَّاتِ؟»

«لِأَنِّي دَعَوْتُهُ لِزِيَارَتِي هَذَا الْمَسَاءِ، فَلَمَّا تَأَخَّرَ فِي الْحُضُورِ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَهُ  
مَكْرُوهٌ، وَأَسْرَعْتُ إِلَى هُنَا لَدَى سَمَاعِي تِلْكَ الصَرَخَاتِ... قُلْ لِي، يَا دَكْتُورَ واطْسُنْ،  
هَلْ رَأَيْتَ أَوْ سَمِعْتَ أَيَّ شَيْءٍ آخَرَ ذِي بَالٍ؟»

أَجَبْتُهُ فِي حَزْمٍ وَثَبَاتٍ: «كَلَّا، وَأَنْتَ؟» فَاجَابَ بِالنَّفْيِ.





قُلْتُ فِي دَهْشَةٍ : «عَنْ أَيِّ شَيْءٍ تَسْتَفْسِرُ إِذَنْ؟»  
 أَجَابَ الرَّجُلُ قَائِلًا : «أَنْتَ تَعْرِفُ - وَلَا شَكَّ - مَا يَتَنَاقَلُهُ الْفَلَّاحُونَ فِي هَذِهِ الْمِنْطَقَةِ  
 مِنْ حِكَايَاتٍ عَنْ «الْكَلْبِ الشَّبَحِ» وَمَا إِلَى ذَلِكَ. وَهَذَا يَجْعَلُنِي أَتَسَاءَلُ فِي حَيْرَةٍ : هَلْ  
 فِيمَا وَقَعَ اللَّيْلَةَ ثَمَّةَ دَلِيلٍ عَلَى صِدْقِ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ؟»  
 «كَلَّا بِالْمَرَّةِ، إِذْ لَا يَعْدُو الْأَمْرُ أَنْ يَكُونَ حَادِثًا مَشْتُومًا ؛ فَإِنَّ «سِيلْدَن» التَّعِيسَ قَدْ  
 دَفَعَهُ طَوْلُ الْقَلَقِ وَالتَّشَرُّدِ إِلَى أَنْ يَعْدُو كَالْمَجْنُونِ، فَوَقَعَ وَكُسِرَ عُنُقُهُ!»  
 بَدَتْ عَلَى سَتِيلْتُونِ أَمَارَاتُ الْأَرْتِيَاكِ، فَعَقَّبَ قَائِلًا : «يَبْدُو هَذَا مَعْقُولًا.»  
 ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى صَدِيقِي هَوْلْمَزَ بِالسُّؤَالِ : «وَمَا رَأَيْكَ أَنْتَ فِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ، يَا سَيِّدَ  
 شِرْلُوكِ هَوْلْمَزَ؟»

أَجَابَ هَوْلْمَزَ، وَهُوَ يَخْطُو بِضَعِ خُطُواتٍ إِلَى الْأَمَامِ : «لَقَدْ عَرَفْتَنِي !»  
 «طَبْعًا.. عِنْدَمَا رَأَيْتُ الدَّكْتُورَ وَاطْسُنَ هُنَا، أَذْرَكْتُ أَنَّكَ سَتَلْحَقُ بِهِ.»  
 وَتَرَكْنَا الْجُثَّةَ، وَوَدَعْنَا سَتِيلْتُونِ، ثُمَّ قَفَلْنَا رَاجِعِينَ إِلَى قَصْرِ بَاسْكَرْفِيلِ.  
 قَالَ السَّيِّدُ هَوْلْمَزَ بِابْتِسَامَةٍ كَالِحَةٍ : «يَا لَأَعْصَابِ الرَّجُلِ الْقَوِيَّةِ ! إِنَّهُ شَيْطَانٌ مَا كَرُّ،  
 وَلَكِنْ كِدْنَا أَنْ نَوْقِعَهُ فِي الْفَخِّ. نَحْنُ لَا نَمْلِكُ دَلِيلًا فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ عَلَى إِدَانَتِهِ فِي  
 مَضْرَعِ أَيِّ شَخْصٍ، فَإِنَّ الظَّاهِرَ لِلْعَيَانِ أَنَّ سِيرَ تشارلزَ قَدْ تُوَفِّي بِمَرَضٍ فِي الْقَلْبِ، وَأَنَّ  
 السَّجِينَ الْهَارِبَ «سِيلْدَن» قَدْ لَقِيَ حَتْفَهُ إِثْرَ سَقْطَةٍ عَلَى الْأَحْجَارِ. غَيْرَ أَنَّنِي أَتَوَقَّعُ أَنَّ  
 تَرَوُّدَنَا السَّيِّدَةَ لِيُونزَ بِيَعُضِ الْحَلَقَاتِ الْمَفْقُودَةِ.»

وَعِنْدَ وُصُولِنَا إِلَى الْقَصْرِ، أَفْضَيْنَا بِنَا مَضْرَعِ سِيلْدَنَ إِلَى السَّيِّدِ بَارِيمُورَ وَزَوْجَتِهِ. وَبَدَا  
 بَارِيمُورَ وَكَانَتْ تَخْفَفُ مِنْ شَيْءٍ كَانَ يُثْقِلُ كَاهِلَهُ. أَمَّا زَوْجَتُهُ فَقَدْ حَزَنْتَ حَزْنًا شَدِيدًا؛ إِذْ  
 كَانَتْ لَا تَرَاهُ تَرَى فِي شَخْصِ سِيلْدَنَ أَخًا أَصْغَرَ عَزِيزًا عَلَيْهَا. وَسَرَّ سِيرَ هَنْرِي لِرُؤُوسِنَا  
 - وَلِلْقَاءِ هَوْلْمَزَ بِنَوْعٍ خَاصٍّ - إِذْ كَانَ قَلِيلًا طَوَالَ الْمَسَاءِ، يَمْشِي فِي أَرْجَاءِ الْمَتَرِلِ طَبَقًا  
 لِتَعْلِيمَاتِي الْمُسَدَّدَةِ بِعَدَمِ مُغَادَرَةِ الْمَكَانِ. وَأَخْبَرْنَاهُ بِمُعْظَمِ مَا جَرَى عَلَى أَرْضِ  
 الْمُسْتَنْقَعِ، وَكَانَ تَوَاقًا إِلَى مَعْرِفَةٍ مَا إِذَا كُنَّا قَدْ اكْتَشَفْنَا شَيْئًا عَنْ الشَّبَحِ.

قَالَ سِيرَ هَنْرِي فِي تَأْكِيدٍ : «لَقَدْ سَمِعْتُهُ جَيِّدًا، وَكَذَلِكَ الدَّكْتُورُ وَاطْسُنَ، وَإِنِّي مَوْقِنٌ  
 شَخْصِيًّا أَنَّهُ كَلْبٌ حَقِيقِيٌّ، وَلَيْسَ وَهْمًا أَوْ خَيَالًا.»  
 أَجَابَ هَوْلْمَزَ : «حَسَنًا، إِذَا مَدَدْتَ لَنَا يَا سِيرَ هَنْرِي يَدَ الْعَوْنِ، فَلَسَوْفَ نَتِمَكَّنُ مِنْ  
 كَشْفِ السِّرِّ بِأَكْمَلِهِ.» فَأَجَابَ سِيرَ هَنْرِي بِحِمَاسٍ : «سَوْفَ أَنْفُذُ بِسُرُورٍ كُلَّ مَا تَطْلُبَانِ.»  
 وَتَوَقَّفَ هَوْلْمَزَ فَجْأَةً، وَهُوَ يُحْمِلُ فِي صُورَةٍ مُعَلَّقَةٍ عَلَى الْجِدَارِ. كَانَتْ صُورَةً زَيْتِيَّةً  
 لِيَهُوْغُو دِي بَاسْكَرْفِيلِ : الرَّجُلِ الْأَصْلِيِّ فِي الْأُسْطُورَةِ. وَبَعْدَ أَنْ غَادَرْنَا سِيرَ هَنْرِي إِلَى  
 غُرْفَتِهِ، وَقَفَّ هَوْلْمَزَ عَلَى كُرْسِيِّ وَأَخْفَى بِذِرَاعِهِ الْقُبْعَةَ وَالشَّعْرَ فِي الصُّورَةِ. وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ  
 سَأَلَنِي قَائِلًا : «وَالْآنَ يَا وَاطْسُنَ، وَجْهٌ مَنْ هَذَا؟»

كَدْتُ لَا أَصْدُقُ عَيْنِي... وَصَرَخْتُ : «كَانَتْهُ سَتِيلْتُونُ.»  
 أَجَابَ هَوْلْمَزَ : «نَعَمْ... إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ عَائِلَةِ بَاسْكَرْفِيلِ.»  
 صَحْتُ قَائِلًا : «آه، لَقَدْ قَبَضْتُ الْآنَ عَلَى مِفْتَاحِ اللَّغْزِ... إِنْ صَدِيقُنَا سَتِيلْتُونُ  
 يَرْسُمُ خُطَّةَ جَهَنَّمِيَّةٍ لِلْإِسْتِخْوَادِ عَلَى ضَيْعَةِ بَاسْكَرْفِيلِ.» قَالَ هَوْلْمَزَ وَهُوَ يَفْرُكُ يَدَيْهِ فَرِحًا :  
 «تَمَامًا، يَا وَاطْسُنَ، وَلَكِنَّا الْآنَ ضَيَّقْنَا حَوْلَ رَقِيَّتِهِ الْخِنَاقِ.»





وفي الصباح التالي، أخطر هولمز سير هنري بما سوف نفعله قائلًا له: «سوف نرحل اليوم، أنا وواطسن، إلى لندن لأمر مهم. ولكنني أريدك أن تذهب لتناول العشاء مع ستيبلتون وأخته حسب الموعد السابق. وعندما تصل إلى «بيت ميريت» مر سائقك أن يعود بالعربة إلى القصر، قائلًا لستيبلتون إنك سوف ترجع سيرًا على قدميك.»

قاطعته سير هنري في آنز عاج: «وهل ساعدوا إلى القصر ليلاً سائراً عبر المستنقع؟»

«أجل. ولكن يجب أن تسير على الممر المستقيم ما بين بيت ميريت وطريق جرمين، ولا تنس أن تذكر لستيبلتون أنني قد ذهبت اليوم إلى لندن في صحبة واطسن.»

«سمعا وطاعة. سوف أفعل ما تأمر به.»

ولم نلبث أن انطلقنا، أنا وهولمز إلى «كومب تريسي» حيث وجدنا الفتى كارترايت في انتظارنا. وسلم الفتى لهولمز برقية تفيد بأن مفتش الشرطة المدعو ليستريد، سوف يكون هناك في الساعة الخامسة وأربعين دقيقة. ثم سافر كارترايت إلى لندن بأول قطار ليبحث منها برقية إلى سير هنري، تخبره بوصولنا أنا وهولمز إلى العاصمة سالمين.

وأسرعنا، أنا وهولمز، لمقابلة السيدة ليونز. أخبرها هولمز أنه يتحرى عن حادث مصرع سير تشارلز باسكرفيل، وأن التحقيق قد يتناولها، ويتناول زوجة ستيبلتون.

صاحت السيدة ليونز في دهشة: «ماذا، يا سيد هولمز؟»

أجاب هولمز في هدوء: «إنها تتظاهر بأنها أخته، غير أنها زوجته في الواقع.»

صرخت السيدة في أنفعال شديد: «لا أصدق هذا الهراء... كلا، لا أصدق.. هلا أقمت الدليل على ما تزعم؟» قال هولمز بنفس الهدوء: «هالك صورة فوتوغرافية أخذت للزوجين في يورك منذ أربع سنوات... كانا معروفين هناك باسم: السيد فانديلير وزوجته، ولدينا شهود كثيرون يستطيعون التعرف عليهما.»

وتفحصت السيدة ليونز الصورة في شك وارتياب. ولكنها لم تلبث أن صاحت في نبرة تنصح بالمرارة: «لقد عرض ذلك الكاذب المخاتل الزواج علي... ولكنني أدركت الآن مدى كذبه وخداعه، وكيف كنت أداة طيعة في يديه!»

واستمرت قائلة: «لقد طلب مني أن أكتب خطاباً لسير تشارلز، وأن أحدد فيه موعداً للقائه كي يعطيني مبلغاً من المال لسداد رسوم إجراءات طلاق، ففعلت ذلك دون أن يخطر ببالي أنني أعرض حياة الرجل للخطر... وقد أملى ستيبلتون علي الخطاب بنفسه، غير أنه عاد يرجوني - بعد إرساله - ألا أذهب للقائه الرجل، زاعماً أنه قد شعر بأن من واجبه إزائي أن يقدم لي هو المبلغ المطلوب، وتوسل إلي ألا أذكر لأحد شيئاً عن هذا الموعد الذي لم يتم مع سير تشارلز.»

وعقب هولمز: «لا بد أن الشكوك قد ساورتك عندما أبلغت بوفاة سير تشارلز.»

«أجل، ولكن لو كان ستيبلتون أميناً معي، لما أفضيت لك بشيء.»

أردف هولمز: «يا سيدة ليونز، أستطيع أن أوكد لك الآن - بعد أن عرفت مدى قسوة ستيبلتون - أنك سعيدة الحظ جداً ببقالك على قيد الحياة حتى اليوم.»

وغادرنا بعد أن أخذت مغاليق السر تتكشف لنا بالتدريج، وذهبتنا إلى المحطة لمقابلة «ليستريد». وفي طريق عودتنا بالعربة سردنا على الرجل كل أحداث القصة. وقبل الوصول إلى قصر باسكرفيل تركنا العربة وسرنا على الأقدام نحو بيت ميريت، بينما كانت ظلال المساء القاتمة آخذة في الانتشار من حولنا.



كَانَ الْمُسْتَنْقَعُ ذَا مَنْظَرٍ مُرَوِّعٍ كَثِيبٍ ، وَغَطَى الضَّبَابُ الْكَثِيفُ حَمَاءَ جَرْمَيْنِ . وَلَمْ نَلْبَثْ أَنْ رَأَيْنَا أَضْوَاءَ بَيْتِ مِيرِيَّتْ أَمَامَنَا . وَعِنْدَ اقْتِرَابِنَا مِنَ الْبَيْتِ ، اخْتَبَأَ هَوْلْمَزٌ وَلِيسْتَرِيدُ خَلْفَ الصُّخُورِ ، بَيْنَمَا زَحَفْتُ مُتَقَدِّمًا إِلَى أَقْرَبِ نَافِذَةٍ . وَأَسْتَطَعْتُ أَنْ أَرَى سِيرَ هَنْرِي وَسِتِيلْتُونِ وَهُمَا يَحْتَسِيَانِ الْقَهْوَةَ وَيُدْخِنَانِ السِّجَارَ فِي غُرْفَةِ الطَّعَامِ . وَوَاصَلْتُ الْمُرَاقَبَةَ ، فَرَأَيْتُ سِتِيلْتُونِ يُغَادِرُ الْحُجْرَةَ ، وَيَنْزِلُ إِلَى الْحَدِيقَةِ حَيْثُ سَارَ فِيهَا إِلَى أَنْ أَتَى إِلَى مَبْنَى إِضَافِيٍّ صَغِيرٍ مُلْحَقٍ بِالْمَنْزِلِ . وَمَا إِنَّ فُتِحَ حَتَّى تَرَامَتْ إِلَى مَسْمَعِي أَصْوَاتٌ غَيْرُ وَاضِحَةٍ مِنَ الدَّاخلِ . عَلَى أَنَّهُ عَادَ بَعْدَ بَرْهَةٍ قَصِيرَةٍ إِلَى ضَيْفِهِ فِي حُجْرَةِ الطَّعَامِ .

وَرَجَعْتُ لِأَخْبِرَ رَفِيقِي بِمَا رَأَيْتُ ، وَبِأَنِّي لَمْ أَعْثُرْ لِلْسَيِّدَةِ عَلَى أَثَرٍ .

وَتَضَاقَقَ هَوْلْمَزٌ بَعْضَ الشَّيْءِ لِأَنَّ الضَّبَابَ اضْطَرَّنَا إِلَى تَغْيِيرِ مَسَارِنَا فَتَحَوَّلْنَا عَنْ مُسْتَنْقَعِ جَرْمَيْنِ إِلَى أَرْضٍ أَكْثَرَ صَلَابَةً وَأَرْتِفَاعًا تَبْعُدُ حَوَالِي نِصْفِ مِيلٍ عَنِ الْمَنْزِلِ . وَلَمْ نَلْبَثْ أَنْ سَمِعْنَا فَجَاءَةً وَقَعَ خُطَوَاتٍ سَرِيعَةٍ عَلَى الطَّرِيقِ الْمَفْرُوشِ بِالْحَصَى . كَانَ سِتِيلْتُونُ يَسِيرُ عَلَى ذَلِكَ الطَّرِيقِ ، وَيَتْبَعُهُ ضَيْفُهُ السَّيْرَ هَنْرِي عَلَى بُعْدِ خُطَوَاتٍ قَلِيلَةٍ مِنْهُ ... وَفِي مِثْلِ لَمَحِ الْبَصَرِ ، أَخْرَجَ هَوْلْمَزٌ مُسَدَّسَهُ وَهُوَ يَهْمِسُ لِي قَائِلًا : « انْتَبِهْ ! إِنَّهُ قَادِمٌ ! »

وَسَرَّعَانَ مَا تَصَاعَدَتْ دَمْدَمَةٌ حَادَّةٌ مُتَوَاصِلَةٌ مِنْ جَوْفِ الضَّبَابِ الْمُتَرَاكِمِ . وَأَطْلَقَ لِيسْتَرِيدُ - عَلَى حِينِ غُرَّةٍ - صَرْخَةً دُغْرَ هَائِلَةً ، ثُمَّ أَرْتَمَى مُبْطِئًا عَلَى الْأَرْضِ . وَقَفَزْتُ - شَاهِرًا مُسَدَّسِي - إِلَى الْأَمَامِ ، فَرَأَيْتُ مَخْلُوقًا فَطِيعَ الْمَنْظَرِ يَبْرُزُ مِنْ بَيْنِ طَيَّاتِ الضَّبَابِ الْمُتَكَاثِفِ مُثِيرًا لِلْفَزَعِ وَالْإِرْتِيَاعِ ... كَانَ كَلْبًا ضَخْمَ الْجَنَّةِ ، شَدِيدَ السَّوَادِ ، ذَا لَهَبٍ أَحْمَرَ يَتَفَجَّرُ مِنْ فِيهِ ، وَعَيْنَاهُ تُشْعَانِ شَوْاطِئًا مِنْ نَارٍ ، كَمَا كَانَ يَتَمَيَّزُ بِفَكَّيْنِ نَائِتَيْنِ ، وَلُغْدٍ كَبِيرٍ يَنْدَلِّي أَسْفَلَ رَقَبَتِهِ ... وَوَثَبَ الْكَلْبُ خَلْفَ سِيرِ هَنْرِي ، فَشَلَّتْ حَرَكَتَنَا مِنَ الرُّعْبِ ، وَتَرَكْنَاهُ يَمُرُّ مِنْ أَمَامِنَا ، وَلَكِنْ سَرَّعَانَ مَا أَطْلَقْنَا عَلَيْهِ الرِّصَاصَ ، أَنَا وَهَوْلْمَزُ ، فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ . وَنَبَحَ الْكَلْبُ نُبَاحًا عَالِيًا مُخِيفًا ، غَيْرَ أَنَّهُ وَاصَلَ الْعَدُوَّ خَلْفَ الرَّجُلِ .

وَعَلَى مَسَافَةٍ غَيْرِ بَعِيدَةٍ ، أَسْتَطَعْنَا أَنْ نَرَى سِيرَ هَنْرِي يَتَطَلَّعُ إِلَى الْوَرَاءِ فِي هَلَعٍ شَدِيدٍ ، لِيَرَى ذَلِكَ الْحَيَّوَانَ الْمُفْزِعَ الَّذِي يَتَعَقَّبُهُ . وَمَا إِنَّ اقْتَرَبْنَا مِنَ الرَّجُلِ ، حَتَّى رَأَيْنَا الْوَحْشَ



يَقْفِزُ فَوْقَهُ وَيَطْرَحُهُ عَلَى الْأَرْضِ . نَدَّتْ عَنْ سِيرِ هَنْرِي صَرْخَةٌ دُغْرٌ تُقَطِّعُ نِيَاطَ الْقَلْبِ ، وَلَكِنْ فِي اللَّحْظَةِ التَّالِيَةِ كَانَ هَوْلْمَزٌ قَدْ وَصَلَ ، فَأَطْلَقَ خَمْسَ رِصَاصَاتٍ أَسْقَرَتْ فِي جَنْبِ الْوَحْشِ . وَتَرَنَحَ الْكَلْبُ الْعِمْلَاقُ ... وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ خَرَّ صَرِيعًا .

وَوَظَلَ سِيرَ هَنْرِي مَغْشِيًا عَلَيْهِ بَعْضَ الْوَقْتِ ، وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ فِي جَسَدِهِ آيَةَ جُرُوحٍ . وَلَمْ نَلْبَثْ أَنْ أَعْدَنَاهُ إِلَى الْوَعْيِ . فَهَمَسَ مُرْتَعِدًا : « مَا هَذَا الشَّيْءُ الْمُرَوِّعُ ؟ »

أَجَابَ هَوْلْمَزُ : « هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي يُهْدِدُ عَائِلَتَكُمْ مِنْذُ زَمَنٍ ... وَلَكِنَّهُ قَدْ مَاتَ الْآنَ . »

كَانَ الْحَيَّوَانُ الْمُفْزِعُ مُلْقَى بِجِوَارِنَا عَلَى الْأَرْضِ . وَتَفَحَّصْتُهُ فَأَلْفَيْتُهُ شَيْئًا وَسَطًا بَيْنَ كِلَابِ الْحِرَاسَةِ وَالْكِلَابِ الْبُولِيسِيَّةِ الضَّخْمَةِ ، وَلَكِنَّهُ يَتَمَيَّزُ بِقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ . وَلَمَسْتُ الْإِشْعَاعَاتِ الزَّرْقَاءَ الَّتِي لَمْ تَزَلْ تَوِضُّ حَوْلَ فَكِّهِ ، فَفُوجِئْتُ بِأَصَابِعِي تَبْرِقُ فِي الظَّلَامِ





## خاتمة

مرّت بضعة أسابيع قبل أن يُقدّم لنا هولمز تفسيراً كاملاً لِألغازِ أُسطورةِ شبحِ باسكرفيل... كان ذلك في لقاءٍ ضمّنا مع سير هنري باسكرفيل والدكتور مورتيمر في لندن، قبل قيامهما برحلةٍ طويلةٍ حول العالم. قال هولمز:

«عندما طلب مني مورتيمر أن أتحرى الظروف الغامضة التي أحاطت بمصرع سير تشارلز باسكرفيل، كان همي الأول أن أجمع كلّ المعلومات الممكنة عن عائلة باسكرفيل. وكانت المفاجأة الأولى عندما اكتشفت أن «رودجر» - أخاه الأصغر ذا السمعة السيئة الذي هرب إلى جنوب أمريكا - لم يمت عزباً - كما يظنّ الناس - ولكنه تزوّج وأنجب ولداً. وتزوَّج هذا الابنُ بفتاةٍ جميلةٍ من «كوستاريكا»، ثم عاداً - بعد حين - معاً إلى إنجلترا متّحليين اسم: فانديلير أولاً، ثم ستيلتون بعد ذلك.

«وقد سبق أن أخبرني واطسن في تقريره الأول الذي أرسله لي أن ستيلتون - وهو أقرب جارٍ إلى قصر باسكرفيل - قد ذكر أمامه أنه كان يملك مدرسة في يوركشاير قبل أن يحضر إلى ديفونشاير، ثم اضطرّ إلى إغلاقها بعد موت ثلاثة تلاميذٍ بأحد الأوبئة. واستطعت أن أتحرى عن تلك المدرسة، فوجدت أن صاحبها كان يحمل اسم: فانديلير، وأنه كان متزوّجاً بامرأةٍ مليحة الجمال، فارعة الطول، ذات لونٍ حمريٍّ ومظهرٍ أجنبيٍّ بعض الشيء. وقد تمكّنت من الحصول على أوصافٍ وصوّرٍ فوتوغرافيةٍ للزوّجين، كما علّمت أيضاً أن ستيلتون كان حُجّةً في علم الفراشات. وهذا قرّنه في ذهني للتوّ بجار باسكرفيل الذي يقطن بيت ميريت.

«وعندما قرأت تقرير واطسن عن أُسطورة شبح باسكرفيل، طرّدت في الحال فكرة أن يكون هناك شيءٌ خارقٌ للطبيعة في الأمر، ذلك لأن الحيوان كان قد ترك بصماتٍ أقدامه على طريق «يو»، حيث وجدت جثة سير تشارلز. ولقد حمّلتني ذلك على أن

أجري استعلامات بين كبار تجّار الكلاب في لندن لمعرفة ما إذا كان أحد الأشخاص قد اشترى كلباً ضخماً في الأيام الأخيرة. وسرعان ما اكتشفت أن شركة «روس وماجلز» المعروفة في شارع فولهام قد باعت كلباً وحشياً ضخماً إلى رجلٍ يدعى ستيلتون من ديفونشاير.

«وعندما استقرّ ستيلتون في بيت ميريت جعل زوجته تتظاهر أمام الناس بأنها أخته، إذ كان قد بدأ يفكر حينئذٍ في تدبير خطةٍ شيطانيةٍ يرث بواسطتها ضيعة باسكرفيل بعد وفاة ابن عمه سير تشارلز. وكّرّس هو وأخته «المزعومة» جهودهما للإطلاع على أحوال سير تشارلز، ولما عرّف من الدكتور مورتيمر أن سير تشارلز مريضٌ بداء القلب، ويخوف مرضيٍّ جامحٍ من الكلب الأسطوريّ المقترس في ذات الوقت، شرع في رسم خطةٍ مكررةٍ للتخلص منه، أملاً في أن يرث أملاكه بحكم الحق الشرعي.

«على أن «أخت» ستيلتون المزعومة رفضت أن تستخدم كشرِكٍ لإغواء سير تشارلز وحمله على الخروج إلى المستنقع، ممّا اضطرّ ستيلتون للجوء إلى السيدة لورا ليونز للقيام بهذه المهمة، واعدّا إياها بالزواج بمجرد أن يتمّ طلاقها من زوجها السابق. والذي حدث - كما تعلمون - هو أن سير تشارلز استدرج إلى البوابة ذات ليلة - عن طريق خداع ستيلتون للسيدة لورا ليونز - حيث أصيب بدُعرٍ شديدٍ لظهور الكلب المفاجيء، فاندفع جرياً على الطريق ليُفتر من الوحش المرعب، مُخلفاً وراءه بصماتٍ





سير آرثر كونان دويل

وُلِدَ سير آرثر كونان دويل في إدنبره بإسكتلندا عام ١٨٥٩ ، وَكَانَ الابْنُ الْأَكْبَرُ لِوَالِدَيْنِ أيرلنديين ذَوِي دَخَلٍ مُتَوَاضِعٍ وَأَبْنَاءِ كَثِيرِينَ . وَكَانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّهِ أَنْ اسْتَطَاعَ الْحُصُولَ عَلَى قَدَرٍ جَيِّدٍ مِنَ التَّعْلِيمِ : فَقَدْ حَازَ دَرَجَةَ عِلْمِيَّةٍ فِي الطَّبِّ مِنْ جَامِعَةِ إدنبره ، قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ حَيَاتَهُ الْعَمَلِيَّةَ كطبيبٍ فِي مَدِينَةِ «بلايموث» أَوَّلَ الْأَمْرِ ، ثُمَّ فِي «ساوثسي» بِجَنُوبِ إنجلترا . وَكَانَتْ حَيَاةُ الطَّيِّبِ حِينَئِذٍ مُرِيحَةً ، يَبْدَأُ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَدْرُ دَخْلًا كَبِيرًا . وَلَمَّا تَزَوَّجَ آرثر كونان دويل ، وَبَدَأَ يَعُولُ أَسْرَتَهُ الصَّغِيرَةَ ، قَرَّرَ أَنْ يَتَحَوَّلَ إِلَى الْكِتَابَةِ كَيْ يَزِيدَ مِنْ إِرَادِهِ .

أَثْمَرَ هَذَا التَّحَوُّلُ سِلْسِلَةً مِنَ الْقِصَصِ عَنْ مُخْبِرٍ سَرِّيٍّ يُدْعَى «شرلوك هولمز» ، وَمُسَاعِدِهِ ، الدُّكْتُورَ وَاطْسُنَ ، كَمَا ظَفَرَ الْكَاتِبُ عَنْ طَرِيقِ هَذِهِ السِّلْسِلَةِ بِنَجَاحٍ وَثَرْوَةٍ لَا بَأْسَ بِهِمَا . وَلَقَدْ أَدْخَلَ كُونَانَ دَوِيلَ شَخْصِيَّةَ شَرْلُوكِ هَوْلْمَزَ بَادِيٍّ ذِي بَدَأٍ فِي قِصَّةٍ طَوِيلَةٍ بِعُنْوَانٍ «دِرَاسَةٌ فِي اللَّوْنِ الْقَرْمِزِيِّ A Study in Scarlet» كُتِبَتْ عَامَ ١٨٨٦ ، يَبْدَأُ أَنَّ الْقِصَّةَ لَمْ تَلَقَ نَجَاحًا مَلْحُوظًا - وَإِنْ أَصْبَحَتْ هِيَ الْبَدَايَةُ الَّتِي انْطَلَقَتْ مِنْهَا شَخْصِيَّةُ شَرْلُوكِ هَوْلْمَزَ وَتَطَوَّرَتْ . وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَدَبِ الْقِصَصِيِّ يُكْتَبُ لِلْمَجَلَّاتِ الشَّهْرِيَّةِ ، حَيْثُ كَانَتْ تَظْهَرُ الْقِصَصُ الطَّوِيلَةُ عَلَى شَكْلِ حَلَقَاتٍ تُنَشَرُ عَلَى مَدَى شَهْرٍ عِدَّةٍ . وَقَدْ نُشِرَتْ مُعْظَمُ رَوَايَاتِ تشارلز ديكنز بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِي الْعُقُودِ الْأُولَى مِنَ الْقَرْنِ

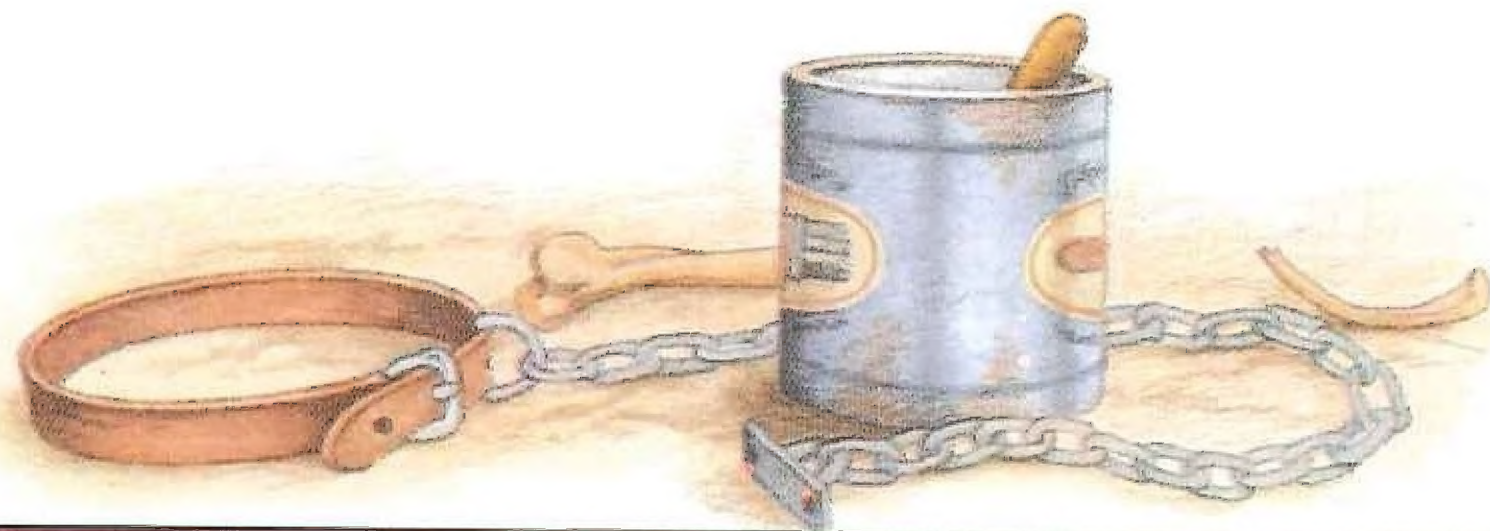
أَقْدَامِهِ الْمُمَيَّزَةِ ، غَيْرَ أَنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ أَنْهَارَ ، وَمَاتَ بِسَكْتَةٍ قَلْبِيَّةٍ . وَالْوَاقِعُ أَنَّ الْكَلْبَ لَمْ يَنْهَشْ سِير تشارلز ، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَنْهَشْ سِيلْدَنَ ، لِأَنَّ الْكِلَابَ لَا تَقْرُبُ لُحُومَ الْمَوْتَى .

«ظَنَّ سَتِيلْتُونُ حِينَئِذٍ أَنَّ الطَّرِيقَ قَدْ أَصْبَحَ مُمَهَّدًا لِأَنَّهُ يُعْلِنُ عَنْ نَفْسِهِ مُطَالِبًا بِضَيْعَةٍ بِاسْكِرْفِيلَ ، وَلَكِنَّهُ فَرَعَ عِنْدَمَا وَجَدَ وَرِثًا غَيْرَ مُتَوَقَّعٍ يُوشِكُ عَلَى الظُّهُورِ فِي شَخْصِ سِير هَنْرِي بِاسْكِرْفِيلَ . وَبِمَجَرَّدِ أَنْ وَصَلَ سِير هَنْرِي إِلَى لَنْدَنَ مِنْ كَنْدَا شَرَعَ سَتِيلْتُونُ فِي صِرَاعِهِ سِرًّا ، غَيْرَ مُدْرِكٍ بِأَنَّ زَوْجَتَهُ الْحَسَنَاءَ - الَّتِي تَمَقَّتُهُ لِقَسْوَتِهِ وَإِجْرَامِهِ - سَوْفَ تُحَاوِلُ تَحْذِيرَ سِير هَنْرِي مِنَ الْخَطَرِ الَّذِي يَتَرَبَّصُ بِهِ بِوَاسِطَةِ الرِّسَالَةِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي اقْتَطَعَتْ كَلِمَاتُهَا مِنْ إِحْدَى الصُّحُفِ . وَيُقَسَّرُ وُجُودُ سَتِيلْتُونِ فِي لَنْدَنَ حِينَئِذٍ وَاقِعَةً الرَّجُلِ الْمُلتَحِي الَّذِي كَانَ يَسْتَقِيلُ الْعَرَبَةَ ، كَمَا يُقَسَّرُ أَيْضًا وَاقِعَةً اخْتِفَاءِ أَحَدِيَّةِ سِير هَنْرِي ، وَكَانَ حِذَاؤُهُ الْجَدِيدُ قَدْ أَخَذَ خَطَأً ، أَمَّا الْحِذَاءُ الْأَسْوَدُ الْقَدِيمُ فَقَدْ سُرِقَ لِتَكُونَ رَائِحَتُهُ دَلِيلًا لِلْكَلْبِ الَّذِي سَوْفَ يُطَارِدُهُ بَعْدَ أَنْ يُسْتَدْرَجَ لِلْخُرُوجِ إِلَى الْمُسْتَنْقَعِ .

«أَمَّا حَادِثَةُ السَّجِينِ الْهَارِبِ : سِيلْدَنَ ، فَهِيَ مِثَالُ صَارِخٍ لِسُخْرِيَةِ الْأَقْدَارِ ، فَلَقَدْ تَخَفَى فِي مَلَابِسِ سِير هَنْرِي الْقَدِيمَةِ لِيَسْتَعِينَ بِذَلِكَ عَلَى الْفِرَارِ ، فَكَانَتْ رَائِحَةُ هَذِهِ الْمَلَابِسِ سَبَبًا فِي مُطَارَدَةِ الْكَلْبِ الْعَنِيفَةِ لَهُ ، وَتَهَشُّمِ رَأْسِهِ فَوْقَ الصُّخُورِ .

«وَلَعَلَّكَ دَهَشْتَ يَا صَدِيقِي وَاطْسُنَ ، عِنْدَمَا لَاحَظْتَ الشَّبَهَ بَيْنَ صُورَةِ هُوغو بِاسْكِرْفِيلَ الشَّرِيرِ وَمَلَامِحِ صَاحِبِنَا سَتِيلْتُونِ - يَبْدَأُ أَنَّ هَذَا الشَّبَهَ الْكَبِيرَ بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ كَانَ قَدْ تَأَكَّدَ لِي قَبْلَ ذَلِكَ ، حِينَ شَاهَدْتُ صُورَةَ فُوتُوغَرَفِيَّةً فِي يوركشاير لِلْمَدْعُوِّ : السَّيِّدِ فَايندِيلير .

«وَمِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّكَ قَدْ أَدْرَكْتَ الْآنَ يَا عَزِيزِي وَاطْسُنَ ، لِمَاذَا جِئْتُ إِلَى دِيْقُونشايرَ ، وَأَقَمْتُ عِدَّةَ أَيَّامٍ عَلَى أَرْضِ الْمُسْتَنْقَعِ دُونَ أَنْ أُحِيطَكَ عِلْمًا بِذَلِكَ ... لَقَدْ كُنْتُ - بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ - حُرًّا فِي مُلَاحَظَةِ تَحَرُّكَاتِ سَتِيلْتُونِ وَكَلْبِهِ .





التاسع عشر. ولقد طرّق كونان دويل فكرةً جديدةً: وهي أن يحتوي كلُّ عددٍ من أعدادِ المجلّةِ على قصّةٍ كاملةٍ تامّةٍ في حدِّ ذاتها، وأن تكون هذه الشخصياتُ محوراً لسلسلةٍ من هذه القصصِ المنشورةِ عبرَ أعدادٍ كثيرةٍ من المجلّةِ.

وسرعانَ ما اكتسبت الأعمالُ البطوليّةُ الجريئةُ لشرلوك هولمز والدكتور واطسن التي احتوتها القصصُ المنشورةُ في مجلّةِ «الشاطيء» جمهوراً عريضاً متحمساً في شتى أرجاء العالم. ولكن ما إن حلَّ عام ١٨٩١ حتّى فقد كونان دويل اهتمامه بشخصيّةِ شرلوك هولمز وقرّر ألا يكتبَ عنه كلمةً أخرى واحدة: لقد شعرَ أنّه - في حقيقة الأمر - كاتبٌ جادٌ، وأن شهرتهُ وخلوده سوف يؤسسان على دعائم الروايةِ التاريخيّةِ دون غيرها مثل روايته: «مايكا كلارك». بيدَ أن هذا لم يتحقّق: ذلك أن كونان دويل لا يزال يُذكرُ حتّى اليومَ بأنّه مُبدعُ شخصيّةِ شرلوك هولمز.

على أن كونان دويل ما لبث أن اقتنعَ عام ١٩٠١ بأنّه من الخير أن يُعيدَ إحياءَ شخصيّةِ شرلوك هولمز، وكانت النتيجةُ أن ظفّرَ الأدبُ بروايته: «شبح باسكرفيل». وأعقبَ هذه الروايةَ العديدُ من قصصِ هولمز، حتّى إن مجلّةَ «الشاطيء» لم تفرغَ من نشرِ قصّتهِ الأخيرة - وترتيبها الستون في هذه القصص - إلّا في عام ١٩٢٧. وفي نفس الوقتِ كتبَ كونان دويل أعمالاً أخرى كثيرةً، من أشهرها روايتهُ الواسعةُ الانتشار: «العالمُ المفقود».

ولقد عاش كونان دويل حياةً بالغةَ النشاطِ كرجلٍ من رجالاتِ الرياضة، ومُحاضرٍ، ورحالةٍ، ومرشّحٍ لعضويّةِ البرلمان. وقُربَ نهايةِ حياته شغفٌ كثيراً بالروحانيّات، واستغرقَ فيها إلى أن توفّي عام ١٩٣٠.

